العدول في البنية التركيبية
قراءة في التراث البلاغي

إعـــداد

د. إبراهيم بن منصور التركي

أستاذ مساعد في جامعة القصيم

قسم الأدب والبلاغة والنقد

ملخص البحث :

حاولت هذه الدراسة أن تعرض واحداً من أهم عوامل اللغة الأدبية، ألا وهو العدول. وقد حاولت استجلاء هذا العامل في كتب البلاغة العربية، وفي كتب علم المعاني تحديداً.

وقد كانت النتيجة التي خلصت إليها أن البلاغيين العرب قد درسوا اللغة الأدبية عبر مقارنتها بالاستعمال العادي للغة، فعندما تعدل اللغة عن استعمالها العادي فإنها تحمل المعاني البلاغية.

وقد حاولت تتبع تلك المعاني البلاغية التي ذكرها البلاغيون في كل أقسام الشكل اللغوي في علم المعاني، مبتدئاً به من حيث ابتدأ البلاغيون مباحثه حتى مررت عليها بالكامل، وآمل أن أكون وفقت في عرض ذلك.

المقدمـــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسـلين، نبينـا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، أما بعد :

فهذه الورقات هي محاولة لدراسة أحد المقاييس التي درسها البلاغيون للوقوف على جمال اللغة وبلاغتها، وقد قمت بدراسة حضور هـذا المقيـاس وبلاغتـه في البنيـة التركيبية للكلام -وهو ما تناوله البلاغيـون في علـم المعـاني- لـئلا يتـشعب البحـث ويطول أكثر مما يجب، مع العلم أن هذا المقياس له حـضوره كـذلك في مباحـث علـم البيان وعلم البديع.

وجاءت هذه الدراسة في تمهيد ومبحثين، تناول التمهيد العلاقة بـين (التركيـب اللغوي والمعنى البلاغي)، وجـاء المبحـث الأول مـن البحـث ليتحـدث عـن (معنـى العدول في اللغـة والاصـطلاح)، في حـين تنـاول المبحـث الثـاني (العـدول في علـم المعاني).

وقد اتبعت في كتابة هذا البحث الخطوات التالية:

- اسـتعنت بكـلام بعـض الدراسـات الأصـيلة والمعاصـرة لـشرح كـلام البلاغيين الأوائل وإيضاحه، ورجعت أحياناً إلى كتب غير بلاغية لإيـراد شواهد وأمثلة أخرى لظاهرة تناولها البلاغيون.
- التزمت قدر المستطاع إظهـار القيمـة البلاغيـة الـتي يفيـدها العـدول في المبحث موضع الدراسة، عبر عرض بعض المعـاني والأغـراض البلاغيـة التي استفادها الكلام من وقوع العدول.
- حرصت على تخريج الشواهد في أثناء البحـث، فأرجعتهـا إلى مواضـعها المعروفة من كتب الأدب واللغة.

تمهيد : التركيب اللغوي والمعنى البلاغي :

عُنِيَ البحث النحوي بتحديد المنازل التي تتنزل فيها أجزاء الكلام، وذلك عن طريق التأليف بين أجزائه وتركيبها على الوجه الذي يتشكل بموجبه المعنى الذهني. وفي هذا الصدد يشير السكاكي إلى هدف علم النحو من خلال تعريفه له بأنه: أن تنحو معرفةَ كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى، وفقاً للمقاييس والقوانين المستنبطة من استقراء كلام العرب[١].

وكلام السكاكي السابق يشير إلى حقيقتين مهمتين، أولاهما: أن تركيب أجزاء الكلام وترتيبه خاضع لمقاييس وقوانين مقررة. وثانيهما: أن وضع أجزاء الكلم في المنازل التي اختصت بها هي التي تعطيه الإفادة المرجوة والمعنى المراد. وهو ما أكده عبدالقاهر قبلاً بقوله إن (الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب)[٢]. ولذلك قيل بأن من حق هذا أن يسبق هذا، وأن من حق ما هاهنا أن يقع هناك، كما قيل في المبتدأ والمفعول والفاعل. وحتى حُظِر في جنس من الكلام أن يقع إلا سابقاً، وفي آخر أن يوجد إلا مبنياً على غيره وبه لاحقاً[٣].

وقد تفطّن كبار النحاة إلى أن الخبرة بتراكيب العربية هي في ذات الوقت خبرة بالأغراض التي تعبر عنها اللغة، أي أن هناك التحاماً بين ما يسمى تراكيب وما نسميه باسم المعاني أو الخواطر[٤]. وهو ما نجده عند سيبويه الذي يشير عند حديثه عن التقديم إلى غرض من أغراضه، إذ يرى أن العرب (يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى)[٥]. وهو الغرض الذي عرف عند البلاغيين فيما بعد باسم: التقديم للعناية والاهتمام.

وهو ما يعني أن التركيب اللغوي لا ينظر إليه من ناحية الصحة النحوية فحسب، بل إنه لا يخلو في بعض الأحيان من معنى أو معان بلاغية. حول هذه المعاني البلاغية التي ينبض بها التركيب اللغوي يدور مفهوم النظم الذي تناوله البلاغيون، وألف فيه عبدالقاهر كتابه (دلائل الإعجاز) مؤكداً على أنه (لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم)[٦]. وانتقلت فكرة النظرية إلى البلاغيين بعده تحت مسمى: علم المعاني. وهو العلم الذي (يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)[٧]. وهذا العلم من علوم البلاغة هو الذي يهتم برصد المعاني والاستعمالات الدلالية والبلاغية التي يتضمنها التركيب اللغوي.

ورغم أن دراسة عبد القاهر والبلاغيين المتأخرين بعده قد درست دلالات التركيب اللغوي إذا وافق الأصل، إلا أنها أحياناً تستنبت قيمها البلاغية من خلال قياسها الوجود اللغوي الأدبي اللاحق، إلى وجود لغوي مفترض سابق. أي أن استكشاف الجمال في الجملة الأدبية يتم بعد انغراس في تربة تركيبها المفترض – الذي قد حدّد سلفاً مواقع أجزاء الكلام – للمقارنة بين التركيب الأدبي الحادث والتركيب النحوي السابق، وهو ما يعرف في الدراسات المعاصرة باسم : العدول.

هذا العدول يعد عند كثير من كتاب النقد المعاصر أحد أهم الخصائص التي تظهر في التعبير الأدبي فتكسبه الدلالات الأدبية والمعاني البلاغية، وفي هذا يقول أحدهم بأن أهم العناصر الخاصة بالقول الجمالي هو أنه يكسر نظام الإمكانات اللغوية الذي يهدف إلى نقل المعاني العادية. أي أنه يكسر نظام اللغة العادي لأجل زيادة عدد الدلالات الممكنة[٨]. أو كما يعبر آخر، يمكن القول بأن التعبير الأدبي لما كان يود الإبانة عن داخله الانفعالي لم يجد إلا يستثمر خصائص التركيب اللغوي لينشئ بناء لغوياً له نسقه الجمالي وتركيبه اللغوي الخاص[٩].

إن التركيب اللغوي كما اتضح قد يتضمن معاني بلاغية، وبالأخص عندما يخالف أصل استعماله ويتحقق فيه العدول. لهذا تنوي السطور القادمة استظهار ذلك من خلال ما كتبه البلاغيون في علم المعاني عن التركيب اللغوي ودلالاته عندما يخالف الأصل.

المبحث الأول: تعريف العدول في اللغة والاصطلاح

يأتي (العدول) في اللغة بمعنى: الميل والانصراف، فقد جاء في لسان العرب: (عدَلَ عن الشيء، يعدِل عدْلاً وعُدُولاً: حاد، وعن الطريق: جار، وعدَل إليه عدولاً: رجع، ومالُه مَعدِل ولا معدول: أي مصْرِف، وعدلَ الطريقُ: مال)(١٠).

وهذا المعنى اللغوي يظهر في المفهوم الذي أعطاه النقد المعاصر للعدول، ذلك أن هناك شبه اتفاقٍ على أن في العدول ميلاً من صياغة إلى صياغة أخرى. هذا على الرغم من عدم الاتفاق على مصطلح واحد، فهناك أكثر من مصطلح يستعمل لهذا الغرض، وقد سرد أحد الباحثين المصطلحات المماثلة التي استخدمها النقد المعاصر للتعبير عن (العدول) فأوصلها إلى خمسة عشر مصطلحاً(١١).

وهو ما يؤكده باحث آخر ذاهباً إلى أن العدول أو الانزياح –كما يسميه– (من بين أكثر المفهومات بروزاً في الخطاب النقدي المعاصر، وقد أطلق عليه علماء الأسلوب والشعر مصطلحات متنوعة... وهي تلتقي جميعها حول مفهوم واحد، يسعى به أصحابه إلى ضبط الخاصية المحددة للأسلوب الأدبي) (١٢).

أما التعريف الاصطلاحي للعدول فقد حاول أحد الباحثين وضع تعريف جامع مانع يميز فيه بين القول الأدبي وغير الأدبي، حيث عرّف العدول بأنه : (مجاوزة السنن المألوف بين الناس في محاوراتهم، وضروب معاملاتهم، لتحقيق سمة جمالية في

القول تمتع القارئ ، وتطرب السامع، وبها يصير نصاً أدبياً)[١٣]. وهذا التعريف يوسّع دائرة العدول ليشمل كل صور الصياغة الأدبية، حتى عدّ هذا الباحث من صور العدول: الوزن، والإيقاع الشعري، والملحمة، والقصة القصيرة، والقصة الشعبية، والرواية.

وبهذا المفهوم يتم توسيع معنى العدول ليشمل الجنس الأدبي كله، بوصفه عدولاً عن الكلام العادي كما اختار ذلك الباحث، إلا إن العدول الذي سيتم الحديث عنه هنا سيكون خاصاً بالبناء اللغوي والشكل الأسلوبي الذي يأتي عليه الكلام، وهو المفهوم الذي يُطرح به هذا المصطلح في الدراسات النقدية المعاصرة، لذلك ستقتصر هذه الدراسة على ما يتناول لغة النص فحسب، إذ ستتناول مباحث علم المعاني فقط. وعلى هذا يصلح أن يقال في تعريف العدول هنا إنه: (مخالفة الكلام لصياغته اللغوية الأصلية المفترضة لتحقيق قيمة جمالية أو دلالة بلاغية). فالعدول بهذا المعنى هو ما سيتناوله البحث في هذه الورقات.

و(العدول)، على الرغم من ترسخ جذوره في التراث النقدي والبلاغي وفي الدراسات المعاصرة إلا أنه يواجه بعض المشكلات كما يرى بعض الباحثين، حيث يقول: (وإذا كان لهذا المفهوم جذور في الفكر البلاغي القديم، فإن صياغته النظرية المتكاملة لم تتم إلا في ضوء بروز النموذج اللساني في النظرية الأدبية الحديثة، وما نجم عن ذلك من آثار تجلت في طبيعة الأسئلة المطروحة والصياغات المقدّمة، ولعلنا ندرك اليوم أنه بقدر استفادة الناقد من المعرفة اللسانية بقدر تأذيه بها، فصيغة (الانزياح) المقترحة من لدن الأسلوبيين لضبط معيار اختلاف اللغة الشعرية عن اللغة العادية، على الرغم من كفايتها فقد واجهت مشكلات كثيرة:

أولها: مشكل تحديد القاعدة التي يتم الانزياح عنها. إن أصحاب هذا المفهوم يواجهون مشكل ضبط المعيار الذي يقاس به الأسلوب...

ثانيها: يترتب على القول بمفهوم الانزياح اعتبارُ اللغة الشعرية أرقى مستويات اللغة، فكلما تحقق قدر أكبر من الخرق للمعايير اللغوية العادية والابتعاد عن درجة الصفر في الأسلوب كلما اقتربت اللغة من جوهر الشاعرية، ومفاد هذا التصور الذي يبني مفهومه للجمالية على أساس الانزياح هو نفي هذه الصفة عن الرواية بما هي جنس نثري واعتبارها أدنى منزلة من الشعر. إن وصف الأسلوبيين للغة الأدبية بأنها انتهاك لنظام اللغة العادية صوتياً وتركيبياً ودلالياً لا يترجم الخاصية الأدبية للرواية، وإنه وصف لطبيعة اللغة الشعرية، وفي هذه الحال لا ترقى الرواية في نظر أصحاب هذا المفهوم إلى تمثيل جوهر الأدب)(١٤).

ولتجنب المشكل الأول (عدم تحديد المعدول عنه) تم اختيار علم المعاني، لأن صور العدول هناك يمكن فيها تحديد الأصل الذي تم العدول عنه بصورة شبه قاطعة. وأما عن المشكل الثاني (أن هذا المصطلح لا يصلح للأنواع السردية)، فهذا صحيح لأن للغة السرد مقاييسها ومعاييرها الجمالية الخاصة التي تختلف بها عن اللغة الشعرية، لهذا يمكن هنا موافقة الرأي القائل بأن (مفهوم الانزياح لا يعدو أن يكون بالحقيقة أداة إجرائية لوصف (الشعر) وتحديد خاصيته الثابتة. ومن هنا يظل مفهوماً محصوراً في نظرية الشعر لا يمتلك نقدياً كفاية استيعاب الأنواع السردية)(١٥).

ولهذا لا تنوي هذه الدراسة تقديم تعريف جامع مانع جديد للعدول ليشمل السرد والشعر، ولكنها ستعتمد التعريف الذي تم طرحه قبلاً لإمكانية الاقتصار فيه على مظاهر العدول في البناء اللغوي، وبالتحديد ما سماه البلاغيون العرب (علم المعاني) الذي يعنى بأحوال اللفظ العربي وأبنيته التي بها يطابق مقتضى الحال.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة دراسات رائدة سبقت في الحديث عن هذا المفهوم، ويعد كتاب الدكتور عبدالحكيم راضي (نظرية اللغة في النقد العربي) واحداً من أهم الكتب التي أشارت لذلك، فقد تفطن علماء العربية إلى (بعدٍ آخر من أبعاد العلاقة

بين مستويي اللغة، هذا البعد هو العلاقة بين ما يمكن أن نصطلح على تسميته: بـ(المثالي) و(المنحرف). والمثالي هنا هو المستوى العاديّ، أما المنحرف فهو المستوى الفني)[١٦]. ولكن د.راضي تناول هذا المفهوم في كتب البلاغة والنقد واللغة، كاشفاً عن وجوده في الذهن النقدي العربي، في حين أن هذا البحث يسعى إلى الوقوف على تطبيقاته في كتب البلاغة العربية تحديداً.

المبحث الثاني: العدول في علم المعاني

في الحديث عن (العدول) لا بد قبلاً من إيضاح مقابله أولاً في البحث البلاغي، ألا وهو (الأصل)، وقد أكد ذلك أحد الباحثين ذاهباً إلى أن (معرفة أصل المعنى تبدو مهمة بالنسبة للبلاغي في ظل الكلام عن الكيفيات التي يطابق بها اللفظ مقتضى الحال، لأنه من خلالها يستطيع أن يكشف عن المزايا الفنية في التركيب، وبالتالي يستطيع أن يحدّد مواطن الصواب والخطأ البلاغي وفق ما تمليه نظرية مطابقة الكلام لمقتضى الحال)[١٧].

لهذا لا بد من التساؤل عن كيفية ورود الأصل عند البلاغيين؟ وكيف تناولوه في علم المعاني؟. لهذا سأقدم بين يدي هذه السطور عرضاً للأصل في نظر القزويني، ثم أعقب ذلك بصور العدول.

أولاً: الأصل

ترد كلمة (الأصل) في كلام البلاغيين في مباحث علم المعاني كثيراً، وواضح أن هذه الكلمة تأتي مقابلاً لـ (خلاف الأصل)، أو (العدول) كما هو المصطلح الذي تتبناه هذه الدراسة. وحتى أقدم رأياً مقنعاً في موقف البلاغيين من الأصل قمت بتتبع ما كتبه القزويني في علم المعاني، واتضح لي أن تناوله للأصل في أثناء دراسته لعلم

المعاني يرد في ثلاث صور :

١) ذكر حالات الأصل ومعانيه الأساسية في اللغة :

يظهر هذا في مبحث الفصل والوصل مثلاً، فهذا المبحث لا يتضمن مخالفة للأصل، وكل ما يذكره البلاغيون هنا هو سرد لتلك الحالات التي تستدعي مجيء الكلام مفصولاً أو موصولاً وفقاً للأصل. وبالمثل ما يذكره البلاغيون في مبحث القصر، فمعظم حديثهم هو تعداد لطرقه وأنواعه دون أن يكون ثمة عدول هناك. ومثل حديثهم عن أدوات الاستفهام ومعانيها الأصلية واستعمالاتها، ومثل دلالة مجيء الكلمة فعلاً أو اسماً وغيرها كثير مما يتحدث فيه البلاغيون عن دلالاتها ومواضع استعمالاتها الأصلية.

٢) ذكر المعاني البلاغية التي يفيدها الأصل:

ويتضح ذلك من خلال حديث القزويني في أحوال المسند إليه عن أسلوب الحذف والذكر، فيقول معدداً الأغراض التي يفيدها الحذف: (أما حذفه فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، وإما لضيق المقام، وإما لتخييل أن في تركه تعويلاً على شهادة العقل... وإما لاختبار تنبه السامع عند القرينة أو مقدار تنبهه، وإما لإيهام أن في تركه تطهيراً له عن لسانك أو تطهيراً للسانك عنه، وإما ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مست إليه حاجة، وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاء، وإما لاعتبار آخر مناسب)(١٨).

ويقول عن الذكر: (وأما ذكره فإما لأنه الأصل ولا مقتضى للحذف، وإما للاحتياط لضعف التعويل على القرينة، وإما للتنبيه على غباوة السامع، وإما لزيادة الإيضاح والتقرير، وإما لإظهار تعظيمه أو إهانته... وإما للتبرك بذكره، وإما

لاستلذاذه، وإما لبسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب، كقوله تعالى: {هِيَ عَصَايَ}[١٩])[٢٠].

إن النصين السابقين يكشفان إدراك القزويني كون الذكر هو الأصل، وأن الكلام أحياناً لا يقتضي الحذف، ومع هذا فإن هذا الذكر الذي وافق الأصل قد يتضمن أغراضاً بلاغيةً أخرى، كما في قوله تعالى: {هِيَ عَصَايَ}، فقد ذكر ركني الجملة (المسند والمسند إليه) وفقاً للأصل، ومع هذا فقد تضمن الكلام غرضاً بلاغياً هو بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب. فالقزويني هنا يذكر الأغراض البلاغية التي يفيدها الذكر مع تقريره قبلاً بأن الذكر هو الأصل.

٣) ذكر الأصل لمعرفة المعاني البلاغية المستفادة من مخالفته:

حيث يذكر هنا الأصل بوصفه مدخلاً وتمهيداً لعرض الصور البلاغية التي يخالف فيها الكلام ذاك الأصل. وهذا النوع كثير جداً. وقد يجتمع مع النوع الأول، بحيث يسرد القزويني استعمالات الأصل ومعانيه ثم يعقب بعد ذلك بذكر ما يخالف فيه الكلام ذلك الأصل. ومن هذا النوع حديثه عن أغراض تقييد الفعل بالشرط، حيث يذكر الفرق في الدلالة بين: إن ، وإذا[٢١]. ثم يذكر بأن (إن) قد تخالف أصل استعمالها بحيث تستعمل في مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة بلاغية[٢٢]. ويذهب إلى أن (إن) و (إذا) تدلان على تعليق الشرط بالجزاء في المستقبل، لهذا يمتنع في كل واحدة من جملتيهما الثبوت، وفي أفعالهما المضي[٢٣]، هذا هو الأصل. ويجوز أن يعدل الكلام عن هذا الأصل – على رأي القزويني- لنكتة بلاغية[٢٤]. وأما أداة الشرط (لو) فالأصل فيها أن تكون جملتاها فعليتين، وكون فعل الشرط ماضياً[٢٥]. ولكن قد يأتي فعل الشرط مضارعاً لغرض بلاغي كما يشير القزويني[٢٦].

وهذا النوع التبس على الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي شارح كتاب الإيضاح، فقد تتبع القزويني في كثير من المرات محتجاً بأن ما يذكره القزويني لا يصح ذكره مع الوجوه البلاغية. وهو ما يدل على أن الصعيدي لم يفهم منهج القزويني في علم المعاني، حيث التزم القزويني في معظم المواضع ذكر الاستعمال الأصلي للأسلوب، ثم يتبعه باستعمالاته وأغراضه البلاغية، وهو أمر غفل عنه الصعيدي في كثير من المواضع، كما في التنكير[٢٧]، وفي الحديث عن أغراض الوصف، حيث يقول القزويني: (وأما وصفه فلكون الوصف تفسيراً له كاشفاً عن معناه... أو لكون مخصصاً له)[٢٨]، يعلق الصعيدي فيقول: (هذا معنى أصلي للوصف، فلا يصح ذكره في وجوه البلاغة)[٢٩]. وهو عدم فهم من الصعيدي لمنهج القزويني كما سلف. بدليل أن القزويني بعد أن يذكر الأصل يشرع في تعداد أغراض الوصف البلاغية، فقد يأتي الوصف لكونه مدحاً، أو ذماً، أو تأكيداً، أو بياناً للموصوف[٣٠]. ومن هنا يتضح أن العدول في علم المعاني يظهر في النوع الثالث، وأما النوعان الأولان فهما مما يدخل تحت مباحث علم المعاني عند البلاغيين دون أن يتحقق فيهما العدول.

وهذا الأمر يكشف خطأ من زعم قيام علم المعاني على فكرة العدول. وهو ما يذهب إليه أحد الباحثين، إذ علم المعاني–على حد رأيه–يقوم على رعاية المستويين من الكلام: المستوى العادي والمستوى الفني. فذكر المطابقة يخرج ما لا تحصل به المطابقة أصلاً مما يدخل في المستوى العادي كالإعلال والتصحيح والإعراب، مما يحتاج إليه في أصل المعنى وهو ما تكفلت به مباحث النحاة. أما أبواب المعاني فيمتنع فيها إجراء الكلام على الأصل، فهي أبواب تقوم أساساً على العدول باللغة عن استخدامها المألوف إلى الاستخدام الفني[٣١].

إذ لا يجب قبول التعميم هنا، فجمال التركيب الأدبي في دراسة البلاغيين لعلم المعاني ليست مقصورة على ما خالف الأصل. فعلم المعاني لا يدرس الكلام إذا

خالف الأصل فحسب، بل هو يدرس الكلام أيضاً حتى وإن وافق الأصـل، للبحـث عن دلالات الأساليب اللغوية وبلاغة استعمالها.

ثانياً : العدول :

وأما العدول فيتم تناوله في البحث البلاغي على صورتين، الأولى: العدول عن الصواب، والثانية: العدول عن الأصل.

أ) العدول عن الصواب:

يقوم البحث البلاغي العربي على مبدأ مهم يحترم الصواب ويعده أمراً لا تجوز مخالفته، فالخطأ اللغوي في بناء الألفاظ أو أداء المعنـى لا يمكـن أن يتـضمن جمـالاً –في نظر البلاغيين– بل هو في منزلة دنيا فلا يوصف حتى بأنه فصيح. ولهذا عدّ البلاغيون مخالفة الأصل التي تكسر قوانين اللغة شيئاً مخلاً بفـصاحة الكلمـة. فهـم يرفـضون أن تخالف الكلمة القياس الصرفي ، كما في قول (الأجللِ) [٣٢] حيث فك الشاعر الإدغام خلافاً للأصل. حيث يرفض البلاغيـون مثـل هـذا العـدول ويعدونـه مخـلاً بفـصاحة الكلام.

وكذلك الأمر فيمـا يتـصل ببنـاء الجملـة، فـالكلام لا يكـون فـصيحاً إذا كـان ضعيف التأليف، (فالضعف كما في قولنا: "ضرب غلامُه زيداً" فإن رجـوع الـضمير إلى المفعول المتأخر لفظاً ممتنع عند الجمهور، لـئلا يلـزم رجوعـه إلى مـا هـو متـأخر لفظـاً ورتبة، كقول الشاعر:

جزى ربه عني عدي بن حاتم   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل[٣٣])[٣٤].

فكما هو واضح أن مخالفة الكلمة أو الكلام لقواعد الصحة اللغوية لا يجعله في نظر البلاغيين عدولاً جمالياً بل هو صورة كلامية رديئة تفتقر إلى الفصاحة والإبانة.

وأما العدول عن الصواب الناتج عن سوء أداء المعنى فقد تناوله البلاغيون في اشتراطهم عدم غرابة الكلمة، وذلك عندما تحتاج الكلمة إلى أن يخرج لها وجه بعيد، كما في قول العجاج:

وفاحماً ومَرسناً مسرّجاً [٣٥]

فإنه لم يُعرف ماذا أراد بقوله (مسرجاً) حتى اختلف في تخريجه[٣٦]، بسبب عدوله بالكلمة عن استعمالها بالصورة المعروفة لها في اللغة. هذه الصور من العدول عن الصواب في البناء والدلالة مما يرفضه البلاغي الأول، ويرى اللجوء إليه مخلاً بالفصاحة.

ب) العدول عن الأصل :

وأما العدول المقبول في نظر البلاغيين فهو العدول الذي يتسق مع قواعد وقوانين اللغة من حيث المبنى والدلالة، وهذا النوع تتعدد مظاهره وأشكاله، فلا يكاد يخلو مبحث من مباحث علم المعاني من رصد صورة الأصل، ثم بيان الصور البلاغية التي تتحقق من خلال العدول عن هذا الأصل. وهو ما تكشف عنه المباحث التالية :

الخبر :

في الحديث عن أغراض الخبر يقول القزويني: (من المعلوم لكل عاقل أن قصد المخبر بخبره إفادة المخاطب إما نفس الحكم، كقولك: "زيد قائم" لمن لا يعلم أنه قائم، ويسمى هذا فائدة الخبر، وإما كون المخبر عالماً بالحكم، كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك: "زيد عندك"، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر) [٣٧].

هذا هو الأصل الذي يراه القزويني في الأغراض التي يفيدها الخبر، ولكنه يرى أن هذا الأصل قد يعدل عنه أحياناً، حيث يقول: (وقد يُنزّل العالم بفائدة الخبر منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم، فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل بأحدهما)[٣٨]. ويذكر الصعيدي من أمثلة ذلك قول الشاعر الفرزدق:

هذا ابْنُ فَاطِمَةَ إنْ كُنتَ جَاهِلَهُ   بِجَدِّهِ أَنْبياءُ اللهِ قَدْ خُتِمُوا[٣٩]

حيث نزل الشاعرُ العالِمَ بالفائدة منزلة الجاهل عندما رأى تجاهل هشام بن عبدالملك معرفة علي بن الحسين رضي الله عنهما[٤٠]. حيث إن هشام بن عبدالملك كان يعلم أن ذلك الرجل هو من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن الخصومة التي بين الأمويين والشيعة في العصر الأموي جعلته يتجاهل معرفته به، فنزّله الفرزدق منزلة الجاهل مع معرفته به.

وفي حديث البلاغيين عن أضرب الخبر، فإنهم يذهبون إلى أن انقسامها إلى ثلاثة أقسام، الضرب الابتدائي الذي يكون فيه المخبر خالي الذهن، والضرب الطلبي الذي يكون فيه المخبَر متردداً، والضرب الإنكاري الذي يكون فيه المخبَر منكراً. ويختلف كل ضرب عن الآخر من حيث ما يزاد معه من المؤكدات، فالأول لا مؤكدات فيه، والثاني يكفيه مؤكد واحد، والثالث تزاد فيه المؤكدات بحسب حال الإنكار[٤١].

وبعد أن يقرر القزويني هذا الأصل فإنه يرى أن الكلام قد يعدل عن هذا الأصل لأغراض بلاغية، وهو ما يسميه: تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر. (فينزّل غير السائل منزلة السائل إذا قدم له ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب، كقوله تعالى: {وَلا تُخاطِبْني في الّذِينَ ظَلَمُوا إنّهُم مُغْرَقُون}[٤٢]، وقوله: {وَمَا أُبرِّئُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بِالسُّوء}[٤٣].... وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض.... وكذلك ينزّل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار، كقوله:

جَاءَ شَقِيقٌ عارِضاً رُمحَهُ ... إنّ بَنِي عَمِّكَ فِيهُم رِماح[٤٤]

فإن مجيئه هكذا مدلاً بشجاعته قد وضع رمحه عرضاً دليل على إعجاب شديد منه واعتقاد أنه لا يقوم إليه من بني عمه أحد.... وكذلك ينزّل المنكر منزلة المنكر إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع عن الإنكار، كما يقال لمنكر الإسلام: "الإسلام حق"، وعليه قوله تعالى في حق القرآن: {لا رَيْبَ فِيهِ}[٤٥].... هذا كله اعتبارات الإثبات، وقس عليه اعتبارات النفي) [٤٦].

إن الكلام السابق يكشف بوضوح إدراك القزويني لصور العدول التي يأتي فيها الكلام خلافاً لصور أضرب الخبر الأصلية التي شرحها القزويني أولاً، وإدراكه أن هذا العدول لا ينفك عن جمال بلاغي ساحر، وأن "سلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض" كما هو نص عبارته.

ويرى باحث معاصر ضرورة عدم حصر الكلام في هذه الأضرب الثلاثة واقتصاره على ما ذكره المبرد في جوابه على الكندي، وكأن ذلك الجواب كان محيطاً بدواعي التوكيد وأسراره في اللغة[٤٧]. إلا أن ما يستحق الإشادة أن الزمخشري لم يحصر نفسه فيما ذكره البلاغيون المتأخرون. حيث يذكر بأن التوكيد قد يأتي ليكشف عن تعلق النفس بالخبر واهتمامها به وأنه جدير عندها بالتقوية والتقرير. كما في قوله تعالى: {وإذا لقُوا الذينَ آمنُوا قالُوا آمنّا وإذا خلَوْا إلى شَياطِينِهم قالُوا إنّا معَكُم}[٤٨]. فقد ترك المنافقون التوكيد في مخاطبتهم المؤمنين، وحققوا التوكيد بإنّ في مخاطبتهم قومهم؛ لأن أنفسهم لا تساعدهم على التوكيد للمؤمنين إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن رغبة واعتقاد. وأما ما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر فقد قالوه عن صدق رغبة وموفور نشاط وارتياح للتكلم به فأتوا بلفظ التوكيد[٤٩].

وهذه الرؤية التي انطلق منها الزمخشري تكشف إدراكه العميق أن صاحب الخبر ربما لا يقصد مخاطباً يؤكِّد له، وإنما هو انبثاق نفسي في صورة لفظية لحالة شعورية تتجسد في هذا التعبير. وهو ما يدل على أن الصياغة قد عدلت عن الأصل، إذ الأصل عند البلاغيين أن يأتي التوكيد أو يترك مراعاة لحال المخاطب، إلا أنه في الموضعين من الآية جاء خلاف الأصل، حيث روعي فيه حال المتكلم نفسه.

وعلى هذه الشاكلة نرى أحد الباحثين حينما يحاول أن يلتمس بعض الأسرار التي تزداد فيها ألفاظ التوكيد على بناء الجملة الأصلي. فيلحظ في قوله تعالى: {قالَتْ رَبِّ إني وضعْتُها أُنثَى واللهُ أعلمُ بما وَضعَت}[٥٠] أن المخاطب –وهو الله جل جلاله– ليس بحاجة لأن يؤكد له الخبر، ولكن أم مريم لطول ما شغلها الأمل في أن تلد ذكراً، تجسم الأمل في خيالها حتى صار كأنه حقيقة واقعة، فلما وضعت مولودها أنثى فوجئت، فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد في قلبها حتى تروض نفسها عليه[٥١]، فزادت في بناء الجملة ما يجعلها تتلاءم مع هذا الغرض الجديد. وفي هذه الأمثلة يتضح كيف أن البحث البلاغي قد رصد دلالات هذا الأسلوب عندما يوافق الأصل، وحاول أيضاً أن يتلمس المعاني البلاغية التي يفيدها عندما يخالف الأصل.

المجاز العقلي :

وفي حديث القزويني عن المجاز العقلي يتضح إدراكه بأنه صورة تنشأ من خلال العدول عن الحقيقة العقلية إلى المجاز العقلي، (أما الحقيقة فهي إسناد الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر)[٥٢]، (وأما المجاز فهو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول)[٥٣]. فالحقيقة هي إسناد الفعل إلى ما هو له، وهذا هو الأصل، وإسناده إلى ما ليس له هو المجاز العقلي، وهو العدول عن ذلك الأصل.

ويظهر العدول في كل علاقات المجاز العقلي، ففي علاقة السببية تتم نسبة الزيادة التي هي من الله إلى الآيات لكونها سبباً فيها، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتهُمْ إِيمَاناً}(٥٤)، ومثله قوله تعالى: {يُذَبّحُ أَبْناءَهُمْ}(٥٥) فقد نسب الفعل إلى فرعون والفاعل غيره لكونه الآمر به(٥٦).

وفي علاقة المفعولية يظهر العدول في إسناد الرضى إلى العيشة في قوله تعالى: {عِيشَةٍ راضِيَة}(٥٧)، وفي الفاعلية يظهر العدول في وضع اسم المفعول موضع اسم الفاعل في قوله تعالى: {جعلْنا بَيْنَكَ وبينَ الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً}(٥٨)، فالحجاب يكون ساتراً لا مستوراً. وفي الزمانية يتم العدول بإسناد الأفعال إلى الزمان، كما في قول: (نهاره صائم، وليله قائم)، وفي المكانية يتم الإسناد إلى المكان، مثل: طريق سائر، ونهر جار. وفي المصدرية يتم الإسناد إلى المصدر، مثل: شعر شاعر، وجن جنونه ونحوهما(٥٩). فإن هذه العلاقات جميعاً تقوم على العدول بإسناد الشيء إلى ما ليس له في الحقيقة.

وليقين القزويني من أن المجاز العقلي يمثل مخالفة للأصل، فقد ذهب إلى القول باستلزام المجاز العقلي للحقيقة، ذلك (أن الفعل المبني للفاعل في المجاز العقلي واجب أن يكون له فاعل في التقدير، إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة)(٦٠).

الحذف :

ليس الحذف تلاعباً بالألفاظ أو تحذلقاً يجوز فعله مرة وتركه أخرى، بل هو حاجة يلحّ المعنى على وجودها. ولهذا يشدّد ابن الأثير على أنه (من شرط المحذوف في البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غثّ لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن)(٦١). فالحذف في نظر ابن الأثير ضرورة فنية ودلالية يقتضيها السياق، بمعنى أنه لا يجوز أن يُسوّى بين الأسلوب ذي الحذف والأسلوب ذي الذكر.

والمحذوف عند البلاغيين قد يكون مسنداً إليه أو مسنداً أو متعلقاً، وجميعها تتضمن العدول لأنها تسقط من أركان الجملة جزءاً من أصل التركيب. ومن حذف المسند إليه حذف المبتدأ الذي يطّرد في "القطع والاستئناف". عندما (يبدأون بذكر الرجل ويقدّمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول، ويستأنفون كلاماً آخر)[٦٢]. كفول الشاعر:

سأشْكُرُ عمراً إنْ تراخَتْ منِيَّتِي ... أَيادِيَ لم تَمْنُنْ وإنْ هِيَ جَلَّتِ

فتىً غيرُ محْجُوبِ الغِنَى عنْ صَدِيقِهِ ... ولا مُظهِرُ الشّكْوى إذا النّعْلُ زَلّتِ[٦٣]

حيث حذف المبتدأ والتقدير: هو فتى. ومثل هذا الحذف يُرجِع الإمام الرازي جماله إلى (أنه بلغ في استحقاق الوصف بما جعل وصفاً له، حيث يعلم بالضرورة أن ذلك الوصف ليس إلا له، سواء كان في نفسه كذلك أو بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة)[٦٤]. أي أن السر الجمالي راجع - كما يعبر أحد المعاصرين- إلى حدوث (عملية توحّد بين الذات والصفة يكون فيها المسند هو المسندَ إليه بلا انفصام. بالحذف تجسّد المسند فصار مسنداً إليه، وعندئذ صار وجود المسند إليه بلا مبرر)[٦٥].

ويذكرون لحذف المسند إليه أغراضاً كثيرة، منها ما يظهر في قول الشاعر:

قالَ لي: كَيفَ أنتَ؟ قلتُ: عليلٌ ... سَهرٌ دائمٌ، وحُزنٌ طويلُ[٦٦]

فإن أصل التركيب يقتضي أن يقول: أنا عليل، وحالي سهر. ولكنه عَدَل عن هذا الأصل نظراً لضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب التوجع والتضجّر[٦٧]. وما قيل عن حذف المسند إليه يقال عن حذف المسند، فإن الحذف هناك عدول واضح عن أصل التركيب لا يخلو من أغراض بلاغية يفيدها ذلك العدول.

أما حذف المفعول فإن عبد القاهر يحمل على عاتقه شأن توضيحه وبيانه؛ لأن (الحاجة إليه أمس، وهو بما نحن بصدده أخص، واللطائف كأنها فيه أكثر، ومما يظهر

بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر)[٦٨]. وكمثال على ذلك النوع من الحذف ما يورده الزمخشري حول قوله تعالى: {وترَكهُم في ظلُماتٍ لا يُبصِرون}[٦٩]. إذ يلحظ حذف المفعول من الفعل "يبصرون"؛ لأن هذا (المفعول الساقط من "لا يبصرون" من قبيل المطّرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدر المنوي، كأن الفعل غير متعدّ أصلاً)[٧٠]. وهذا هو المعنى الذي انتبه له قبلاً عبد القاهر من أن حذف المفعول يأتي أحياناً لنكتة تفيد (توفير العناية على إثبات الفعل، والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله، لا أن تُعلِم التباسه بمفعوله)[٧١].

وقد يحذف المفعول لأغراض أخر كثيرة، كما في قوله تعالى: {واللهُ يَدْعُو إلى دارِ السَّلام}[٧٢] ، فقد حذف المفعول من الآية لقصد التعميم فيه، ولامتناع أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره[٧٣]. هكذا يظهر كيف أدرك البلاغيون الأساس العام لمفهوم الحذف، من أنه عدول ينطلق من الحاجة الفنية للمعبر في استخدام هذا النسق من الأداء[٧٤].

التعريف[٧٥] :

يتحقق العدول في التعريف بالضمير والموصول والإشارة والإضافة ولام التعريف. فأما التعريف بالضمير فيذهب القزويني إلى أن التعريف إذا (كان بالإضمار، فإما لأن المقام مقام التكلم...، وإما لأن المقام مقام الخطاب...، وإما لأن المقام مقام الغيبة) [٧٦].

وقد أزعج هذا الحديث أحد الأسلوبيين المعاصرين، لأنه مجرد وصف لمواقع الاستعمال الحقيقية لتلك الضمائر دون رصد صور بلاغية لاستعمال الضمائر، فدراسة البلاغيين (اقتصرت على ما حتمته المواضعة من الدلالة على التكلم أو الخطاب أو الغيبة، حيث أفادوا منها ربط السياق بها دون أن يوجهوا نظرهم إلى

التعامل مع الضمير مطلقاً، إذ هو بجانب ما يقدمه من دلالات وضعية، له إضافات سطحية لها أهميتها البالغة) (٧٧).

والحق أن حديث البلاغيين المتأخرين عن أسلوب التعريف بالضمير لم يغفل كذلك بعض صور العدول التي تقع في استعمال الضمائر، حيث يشير البلاغيون إلى أن الأصل في ضمائر الخطاب أن يُقصَد بها المعيّن، ولكنها قد تخالف هذا الأصل عندما يُخاطب بها غير المعين، وذلك عندما ترد في الكلام دون أن يكون ثمة معين يرجع إليه الضمير، كما في قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِم عِندَ رَبِهِم} (٧٨). ويرى القزويني أن هذا الأسلوب (أُخرِج في صورة الخطاب لما أريد العموم، للقصد إلى تفظيع حالهم، وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تختص بها رؤية راءٍ ، بل كل من يتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب) (٧٩).

وهذا يعني أن غرض العدول في خطاب غير المعين هنا هو إشهار أمر تلك الفئة، وإشاعة خبرها على الجميع، فهي تتحدث عن المجرمين يوم القيامة، وما يعلو رؤوسهم من الذلة والهوان، فجاءت صيغة الخطاب (ترى) لا تخص أحداً بعينه، وإنما تعم جميع العقلاء لإشهار أمر تلك الفئة، وإبلاغه إلى كل مخاطب عاقل، ليتعظ بهم فلا يكون مصيره مصيرهم.

ومثل هذا الاستعمال يأتي كذلك فيما يمثل حكمة عامة صالحة لأن تقال لكل أحد، فيأتي ضمير الخطاب ليبث هذه الحكمة إلى كل العقلاء الذين يستمعون القول فيعونه، ويدركون فيهمونه. كما في قول الشاعر:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ فلا تقنع بما دونَ النجومِ (٨٠)

وفي التعريف بالاسم الموصول يحدد البلاغيون استعماله الأصلي، فيقولون إن استعمال الاسم الموصول يكون لعدم معرفة الاسم الصريح، وعدم علم المخاطب

بالأحوال المختصة به سوى الصلة، كقولك: "الذي كان معنا أمس رجل عالم"[٨١]. هذا هو الغرض الأصلي الذي يدعو إليه استعمال الاسم الموصول.

وقد يُعدل عن هذا الأصل فيأتي التعريف لاستهجان التصريح بالاسم، أو لزيادة تقرير غرض الكلام[٨٢]، ويمكن أن يمثَّل لهذين الغرضين بقوله تعالى: {وَراودَتْهُ الّتِي هُوَ في بيتِها عن نفْسِهِ}[٨٣]. أو للتفخيم والتهويل[٨٤]، كما في قوله تعالى: {فغَشِيَهُم منَ اليَمِّ ما غَشِيَهُم}[٨٥]. وهذا الغرض يأتي كثيراً مع الاسم الموصول (ما)، أو لتنبيه المخاطب على خطئه[٨٦]، كقول الشاعر:

إنّ الّذينَ تَرَوْنَهُم إخْوانَكُم يشْفِي غَليلَ صدورِهِم أنْ تُصْرَعُوا [٨٧]

أو من أجل الإيماء إلى وجه بناء الخبر[٨٨]، كما في قوله تعالى: {إِنّ الّذِينَ يسْتَكْبِرُونَ عنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جهَنَّم}[٨٩].

أما اسم الإشارة فيستعمل للدلالة على الحضور الحسي في الأصل، وقد يخرج عن هذا المعنى ليدل على تميز المشار إليه وتفوقه. فإن تعريف الاسم بالإشارة يأتي (لتمييزه أكمل تمييز، لصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حساً)[٩٠]، كقوله:

هذا أبو الصَّقْرِ فرداً في محاسِنِهِ [٩١]

وقوله:

أولئِكَ قومٌ إن بَنَوْا أحسَنُوا البِنى وإنْ عاهدُوا أوفَوْا وإنْ عقَدُوا شَدُّوا [٩٢]

وقد وهِم من خطّأ القزويني هنا مشيراً إلى أن هذا المعنى هو المعنى الأصلي لاسم الإشارة، وأن ليس ثمة وجه بلاغي في هذا الاستعمال[٩٣]. إذ الصواب أن القزويني لا يشير إلى الإشارة المجردة المباشرة كما في قولنا (هذا بيتي) مثلاً، وإنما هو يريد الإشارة التي يُقصَد من ورائها تمييز المشار إليه الحسي بغض النظر عما إذا كان

حاضراً أو غير حاضر. وقد يكون العدول بالإشارة إلى غير الحاضر للتعريض بعقل المخاطب، وهو ما أشار إليه القزويني في قول الشاعر:

أولئكَ آبائي فَجِئني بمثلِهم   إذا ما جمعَتْنا يا جريرُ المجامعُ (٩٤)

فإن التعريف بالإشارة في البيت يأتي (للقصد إلى أن السامع غبيٌّ لا يتميز الشيء عنده إلا بالحسّ)(٩٥) ،

وقد يتم العدول في اسم الإشارة في استعمال صيغ البعد والقرب التي يحملها اسم الإشارة. فتأتي أداة البعيد مع القريب أو العكس لغرض بلاغي. يقول القزويني (وربما جعل القرب ذريعة إلى التحقير، كقوله تعالى: {وإذا رآكَ الذينَ كفَرُوا إنْ يتّخذُونَكَ إلا هُزُواً أهذا الّذي يذْكُرُ آلهتَكُم}(٩٦)، .... وربما جُعِل البعد ذريعة إلى التعظيم، كقوله تعالى: {آلم ذلِكَ الكِتابُ}(٩٧)، ذهاباً إلى بعد درجته... ولذا قالت: {فَذلِكُنّ الذِي لُمتُنّني فيه}(٩٨)، لم تقل: (فهذا) وهو حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن، وتمهيداً للعذر في الافتتان به. وقد يجعل إلى التحقير، كما يقال: "ذلك اللعين فعل كذا")(٩٩).

أما لام التعريف فالأصل فيها أن تكون إما للعهد أو الجنس، ولكن قد تخرج عن هذا الأصل فتحمل معنى بلاغياً آخر.

فقد تأتي للدلالة على القصر الحقيقي، ذلك (أنك إذا نكّرت الخبر جاز أن تأتي بمبتدأ ثان، على أن تشركه بحرف العطف في المعنى الذي أخبرت به عن الأول، وإذا عرّفت لم يجز ذلك. تفسير هذا أنك تقول: (زيد منطلق وعمرو) تريد: (وعمرو منطلق أيضاً) ولا تقول: (زيد المنطلق وعمرو)، ذلك لأن المعنى مع التعريف على أنك أردت أن تثبت انطلاقاً مخصوصاً قد كان من واحد، فإذا أثبته لزيد لم يصحّ إثباته لعمرو)(١٠٠).

أو الدلالة على التمام والكمال، وذلك عندما يكون قصدك في القصر المبالغة والادعاء، مثل ((زيد هو الجواد) و(عمرو هو الشجاع)، تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود والشجاعة لم توجد إلا فيه)[١٠١].

أو للدلالة على المعرفة والشهرة[١٠٢]، كما في قول الخنساء:

إذا قَبُحَ البُكاءُ على جَميلٍ رَأَيتُ بُكاءَك الحسنَ الجميلا [١٠٣]

وأما التعريف بالإضافة فالأصل أن يكون لتعريف المضاف، إلا أنه قد يُعدل عن هذا الأصل، فتأتي الإضافة للتعظيم ، كما في قوله تعالى: {سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعبدِهِ لَيْلاً مِنَ المسْجدِ الحَرامِ... الآية} [١٠٤]. أو للاستعطاف ، كما في قوله تعالى: {قال: يا ابنَ أمّ إنَّ القومَ استضْعفُوني} [١٠٥] ينادي هارون أخاه موسى بـ (يا ابن أم) وليس باسمه الصريح ليستعطف أخاه ويلين شدة موقفه [١٠٦].

التنكير :

عن التنكير يقول القزويني: (وأما تنكيره فللإفراد، كقوله تعالى:{وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المدِيْنَةِ يَسْعَى}[١٠٧]، أي فرد من أشخاص الرجال، أو للنوعية، كقوله تعالى:{وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَة}[١٠٨]، أي نوع من الأغطية غير ما يتعارفه الناس)[١٠٩].

قال الصعيدي معلقاً على الآية الأولى: (ولا يخفى أن هذا معنى أصلي للنكرة لا يصح ذكره هنا) [١١٠]. والحق أن المعنيين كليهما معنى أصلي، فالنكرة إما أن تدل على نوع أو عدد. ولكن القزويني لا يفوته ذلك فيذكر المعاني البلاغية التي يفيدها التنكير عندما لا يقتصر على دلالته الأصلية، فقد يفيد التعظيم أو التحقير أو التكثير[١١١].

التقديم والتأخير :

تتخذ الكلمات في العربية مواقع محددة لأداء المعنى، فالفعل والفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر... لها مواقعها التي حددتها قواعد اللغة، غير أن هذا لا يعني صرامة القاعدة وعدم إمكانية تبادل المواقع بين أجزاء الكلام. ذلك أن وجود الحركات الإعرابية -كما يرى بعض الباحثين- يعطي الكلمات مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير؛ لأن علامات الإعراب تدل على معنى الكلمة الإعرابي أينما كان موقعها من الجملة المنظومة، بشرط أن يكون المعنى موقوفاً على حركتها المستقلة الملازمة لها[(١١٢)].

وهذا النوع من العدول الذي يتم بتغيير مواقع أجزاء الكلام داخل التركيب النحوي للجملة، يظهر فيما يدرسه البلاغيون تحت مبحث: التقديم والتأخير. وهو المبحث الذي يدرس (تقديم الكلام وهو في المعنى مؤخر، وتأخيره وهو في المعنى مقدم. كقول ذي الرمة:

ما بالُ عينِكَ مِنها الماءُ يَنْسَكِبُ؟ [(١١٣)]

أراد: ما بال عينك ينسكب منها الماء)[(١١٤)]. فابن فارس هنا يستشعر عدول الكلام عن الأصل، ويسعى إلى إعادة صياغة الكلام وفق صورته المفترَضة.

وقد انتبه عبد القاهر إلى الغرض الفني العام الذي يفيده التقديم. وهو أن (ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام)[(١١٥)].

وهو بهذا قد فتح الباب على مصراعيه أمام البلاغيين بعده ليبحثوا عن أغراض أخر جزئية غير هذا الغرض العام. فقاموا – من ثم – بمحاولة استلال القيمة البلاغية الخاصة بكل موضع من خلل التجاوب السياقي بين السطح اللغوي والدلالة المعنوية. إذ لا يمكن أن يعطي المظهر اللغوي الواحد – المقدم أو المؤخر – نفس القيمة

البلاغية في كل مرة. وإنما يتم استجلاؤها عبر التواشج القائم بين العدول الشكلي والمعنى المراد. وبهذا تتعدد القيم البلاغية للمظهر الشكلي الواحد بحسب السياق الذي يحتويه. وعلى هذا الأساس كان تعدد الأغراض في تقديم المسند وفي تقديم المسند إليه.

فعلى سبيل المثال، تحديد غرض العدول في تقديم المسند - عند البلاغيين - بأنه الاختصاص أو مجرد الاهتمام يتم بمعونة السياق. ففي قوله تعالى: {إنّ إلَيْنا إيابَهم. ثم إنّ عَلَيْنا حِسَابَهم}(١١٦) تم تقديم المسند (وهو الخبر هنا) لإفادة الاختصاص. أي إن إيابهم لا يكون إلا لله، وحسابهم لا يكون إلا عليه. أما مثل قوله تعالى: {واعْلمُوا أنّ فيكُم رسُولَ الله}(١١٧) فالتقديم هنا للاهتمام بالخبر ليفيد توبيخ هؤلاء القوم على ما وقع منهم من تفريط، ورسول الله بينهم(١١٨).

وعلى هذه الشاكلة ينظر الزركشي إلى قوله تعالى: {أفرأيتَ مَنْ اتّخَذَ إلَهَه هَواه}(١١٩). فإن (أصل الكلام: "هواه إلهه". كما تقول: اتخذ الصنم معبوداً. لكن قدم المفعول الثاني على الأول للعناية، كما تقول: علمت منطلقاً زيداً، لفضل عنايتك بانطلاقه)(١٢٠). وجدير بالذكر أن هذا المبحث قد أخذ من المهتمين بعلوم القرآن اهتماماً كبيراً يتجاوز ما تطرق إليه البلاغيون بنظرة أوسع ومادة أغزر(١٢١).

وقد لا يوافق ابن الأثير على قوله بأن التقديم قد يأتي قصداً لتحسين نظم الكلام(١٢٢)كما في قوله تعالى: {فأوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفةً مُوسَى}(١٢٣). ذلك أن التقديم عدول عن النسق المألوف إلى نسق ذي دلالة فنية خاصة. نحسها - كما في الآية المذكورة - في بيان الأثر النفسي في شعور موسى عليه السلام بالخوف، كأنه قد بلغ من ضخامته وقوته أن تضاءل بجانبه من كان فيه ذلك الأثر وهو: موسى(١٢٤).

على أن ابن الأثير نفسه يحاول التماس القيم البلاغية التي يفيدها التقديم في مواضع أخر، كما في وقفته عند قوله تعالى: {وظَنُّوا أنّهُم مانعتُهم حصُونُهم منَ

الله}[١٢٥] فإن (في تقديم الخبر الذي هو: "مانعتهم" على المبتدأ الذي هو: "حصونهم" دليلاً على فرط اعتقادهم في حصانتها، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم)[١٢٦]. كما أن في جعل (ضميرهم اسماً لإن وإسناد الجملة إليه، دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة وامتناع لا يبالى معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض. وليس شيء من ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله)[١٢٧].

ومثل هذا التحليل – الذي يكاد يوجد بنصه في الكشاف[١٢٨]– يظهر فيه الإدراك بأن الحال التي اقتضت العدول ليست هي حال الخارج المباين للذات، بل هي حال الداخل الذي أنتج. فالعدول راجع إلى اعتبارات تتعلق بمنشئ الخطاب نفسه، وهو ما يدرأ عن البلاغة العربية تهمة اهتمامها بشأن المخاطب وإغفالها جانب منتج التعبير نفسه، كما يحاول بعضهم أن يدّعي.

وتبدو تراكيب الشعر أكثر حرية في تأليف كلماتها من حيث التقديم والتأخير[١٢٩]، حتى تتمايز فنياً عن الكلام العادي الذي يقتفي أثر البناء النحوي. كما يظهر ذلك في لامية العرب التي يحكمها صياغياً قانون التقديم والتأخير. ففي مثل قول الشاعر:

وكلُّ أبيٌّ باسِلٌ غيرَ أنّني   إذا عَرَضَتْ أوْلى الطَّرائدِ أبْسَلُ [١٣٠]

يذكر الناقد يوسف اليوسف – الذي لحظ تحكم هذا القانون – أنه ما إن قال الشاعر: "غير أني" إلا ويتوقع السامع بعد انتهاء الشطر الأول أن الشاعر سيضيف البسالة إلى نفسه كذلك. ولكن التوقع نفسه سيلغى لو أن لفظة: "أبسل" وقعت بعد عبارة: "أني" مباشرة، لأن الفاصل الزمني يغدو قصيراً إلى حد لا يسمح بتوقع شيء. أما حينما تم الفصل بعبارة طويلة: "إذا عرضت أولى الطرائد"، فإنه قد أتاح للوعي فرصة التوقع ثم لقمه ما توقعه فوراً، فالكلمة المنتظرة جاءت عينها. والمألوف من تجاربنا أننا نحصل على لذة عظيمة حينما نتوقع شيئاً وتأتي به النتائج بالفعل[١٣١].

خروج الكلام عما يقتضيه الظاهر :

من أبرز صور العدول بتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وأشهرها **أسلوب الالتفات**، ذلك أن التركيب في الالتفات يعدل عن البنى التركيبية التي يتطلّبها السياق إلى بنى تركيبية أخرى. وهو ما يشير إليه تعريف القزويني للالتفات، فهو: التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم – الغيبة – الخطاب) بعد التعبير عنه بطريق آخر(١٣٢).

فهذا التعريف يشير إلى أن الكلام بدأ بأحد طرق التعبير الثلاثة، ثم عدل عنها إلى طريق آخر، هذا العدول إنما تحقّق من خلال انصراف الكلام عن البنى التركيبية التي تخص الطريق الأول، واختياره بنى تركيبية تخص الطريق الجديد الذي عدل إليه.

وقد وقف البلاغيون عند هذا الأسلوب وأفاضوا في الحديث عن الأسرار التي يحققها هذا العدول، فابن الأثير يرى أن الغرض الموجب لاستعمال هذا الأسلوب لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، ومثل ذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لا تنحصر(١٣٣). وإلى هذا المعنى يذهب السكاكي، حيث يرى أن أسرار هذا الأسلوب أكثر من أن يضبطها القلم، وأن هذا النوع يختص بلطائف معانٍ قلما تتضح إلا للعلماء النحارير أو البلغاء الحذاق(١٣٤).

وهذا يعني أن قصر غرض الالتفات على أن يكون مجرد تطرية لنشاط السامع وإيقاظٍ لإصغائه وترويح عن نفسه –كما عبّر الزمخشري(١٣٥) والخطيب(١٣٦)– هو رؤية تجهض كثيراً من القيم البلاغية التي يمكن أن يتفتّق عنها مثل هذا الأسلوب. إن الالتفات ليس مجرد تطرية لنشاط السامع وحسب، بل ربما كان الدافع إليه متعلقاً بالمتكلم نفسه، فهو قد لا يجد وسيلة للتعبير عما يتحرّك في نفسه من معنى إلا من خلال العدول بالنسق عن ظاهره، ولهذا لا يقبَل ناقد معاصر (أن يقال إن منشئ

الخطاب قد لجأ إليه لمجرد أنه ضربٌ من التنويع في الأسلوب يروّح به عن نفس المخاطَب)[١٣٧].

وهو الأمر الذي وعاه السكاكي جيداً عند تحليله لسر العدول في التفاتات امرئ القيس في الأبيات التالية:

تطاولَ ليلُك بالإثمدِ ونامَ الخليُّ ولم تَرْقُدِ
وباتَ وباتَتْ لَهُ ليلَةٌ كليلَةِ ذِي العائرِ الأرْمَدِ
وذلكَ عنْ نَبأ جاءَني وخُبِّرتُهُ عَن أبي الأسْودِ[١٣٨]

فقد أرجع العدول من الخطاب إلى الغيبة إلى التكلم لأسباب تتعلق بالشاعر نفسه[١٣٩].

ومن تلك الصور التي وقع فيها العدول بالالتفات أيضاً قوله تعالى : {إيّاك نعبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعين}[١٤٠]، ففي هذه الآية يشير الإمام الزمخشري إلى وجود عدول من لفظ الغيبة في الآيات التي سبقت إلى لفظ الخطاب في هذه الآية، ويعلل ذلك بأن السر وراءه أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلّق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء أو غاية في الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: "إيّاك" يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعين سواك، ليكون الخطاب أدل على العبادة له[١٤١].

فهنا يدرك الإمام الزمخشري عدول التراكيب من صيغ الغيبة إلى صيغ الخطاب، وقد يحدث العكس كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا اتّخذَ الرّحْمنُ وَلَداً لَقدْ جِئتُم شَيْئاً إدّاً}[١٤٢]. فقد عدل عن الغيبة إلى الخطاب لأجل زيادة التسجيل عليهم بالجراءة في حق الله تعالى، وتنبيهاً لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم وموبّخاً[١٤٣].

ويطول الحديث ويخرج عن هدفه لو استمر الحديث عن الالتفات لكثرة أسراره ولطائفه، وتشعب دلالاته ودقائقه، ولكن يكفي في النماذج السابقة أنها تؤكد على أن الالتفات يُنظر إليه بوصفه عدولاً من تركيب إلى تركيب، من أجل أن يحقق هذا العدول معنى بلاغياً معيناً.

ومن صور العدول بتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر **التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه**، ويغلب استعمال الأول (فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه، كقوله تعالى: {ويومَ يُنفخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السّماواتِ}[١٤٤])[١٤٥].

وعلى هذا النمط يجري أسلوب القرآن الكريم، فيعرض كثيراً من مشاهد يوم القيامة في صور الماضي كأنها أحداث قد وقعت، وذلك ليؤكد كينونتها، وأن زمن الدنيا في حساب الحق كأنه قد انتهى ليوجه بهذا الأسلوب الحاسم دواعي الانصراف عن أمر القيامة[١٤٦].

وقريب (من ذلك لفظ الدعاء ومجيئه على صورة الماضي الواقع. نحو: أيدك الله، وحرسك الله. وإنما كان ذلك تحقيقاً له وتفاؤلاً بوقوعه، أن هذا ثابت بإذن الله وواقع غير ذي شك)[١٤٧].

وقد يستعمل القرآن هذا الأسلوب في بعض المواضع لما يضفيه على المعنى من دلالات أخر غير تحقق الوقوع. كما يظهر ذلك في قوله تعالى: {إنْ يثقفُوكُم يَكُونُوا لكُم أعداءً ويبْسُطُوا إلَيكم أيديَهُم وألسنتَهم بالسُّوءِ ووَدُّوا لوْ تكْفُرون}[١٤٨]. حيث يلحظ الزمخشري عطف الفعل الماضي على جواب الشرط المضارع. ويعلل لذلك بأن فيه نكتة لطيفة، لأنه قيل: وودوا قبل كل شئ كفركم وارتدادكم. يعني إنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً، وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من

أرواحكم، لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه[١٤٩].

وكما نابت صيغة الماضي عن صيغة المستقبل، فإنه كذلك تنوب صيغة المستقبل عن صيغة الماضي. كما يظهر ذلك في ما يورده ابن الأثير من حديث الزبير ابن العوام في غزوة بدر. فإنه قال: لقيت سعيد بن العاص وهو على فرس، وعليه لأمة كاملة لا يرى منه إلا عيناه، وهو يقول: أنا أبو ذات الكؤوس. وفي يدي عَنَزَة(سنان الرمح) فأطعن بها في عينه، وأطأ برجلي على خده حتى خرجت العنزة متعقفة (ملوية).

إن (قوله : "فأطعن بها عينه، وأطأ برجلي" معدول عن لفظ الماضي إلي لفظ المستقبل، ليمثل للسامع الصورة التي فعل فيها ما فعل من الإقدام والجراءة على قتل الفارس المستلئم)[١٥٠]. أي أن هذا العدول يأتي لاستحضار الحادثة الماضية وكأنها تقع لحظة الحديث.

وقد يأتي هذا النوع لأغراض أخرى، كما في قوله تعالى: { ألم ترَ أنّ اللهَ أنزلَ مِنَ السّماءِ ماءً فتُصبِحُ الأرضُ مخضرّة}[١٥١]. (فعدل عن لفظ "أصبحت" إلى "تصبح" قصداً للمبالغة في تحقيق اخضرار الأرض لأهميته، إذ هو المقصود بالإنزال غداً)[١٥٢].

على أن ابن الأثير يضيف إلى هذا الغرض الذي يذكره الإمام الزركشي قيمة أخرى، يمثل لها بقوله تعالى: {إنّ الذينَ كَفرُوا ويصدُّونَ عن سَبيلِ الله}[١٥٣]، (فإنه إنما عطف المستقبل على الماضي لأن كفرهم كان ووجد ولم يستجدوا بعده كفراً ثانياً، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه، وإنما هو مستمر يستأنف في كل حين)[١٥٤].

إن الأمثلة التي سبقت وأظهرت المخالفة بين صيغة الفعل وزمنه تلفت إلى تحلل منشئ الخطاب من فكرة أن الزمن يمتد في اتجاه السهم وتشير إلي أن هذا الاتجاه يمكن

عكسه، كما تلفت – من جهة أخرى – إلى أن أهدافنا الخاصة ومقاصدنا لا تخضع بالضرورة للدلالات الزمنية المحددة لصيغ الأفعال في اللغة(١٥٥).

ومن صور العدول في تخريج الكلام عن مقتضى الظاهر **وضع الظاهر موضع الضمير وعكسه**. حيث يقرر الزركشي في البرهان أن الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة عندما يتم الحديث عنها، فإن ذُكِر الاسم ثانياً فإن الأصل أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق(١٥٦). وهذا الأصل الذي يذكره الزركشي قد يُخرَج عنه لأغراض بلاغية يذكرها البلاغيون تحت مسمى: وضع المظهر موضع المضمر أو العكس.

ففي مثل قوله تعالى : {قُل هُو اللهُ أَحَد}(١٥٧)، وقوله: {فإنها لا تَعمى الأبصارُ ولكنْ تَعْمى القُلوبُ التي في الصُدُور}(١٥٨)، يُلحَظ ذكر الضميرين دون أن يسبقهما كلام، وهو عدول عن الأصل الذي ذكره الزركشي. ويذكر البلاغيون أن السر البلاغي وراء هذا العدول هو أن يتمكن في ذهن السامع ما يعقب الضمير. وذلك أن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظراً لعقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع في ذهنه فضل تمكن(١٥٩).

على أن بعض البلاغيين لا يذكر أسراراً أخر لهذه الظاهرة ، إذ يتواتر عن بعضهم الاكتفاء بإيراد هذا السر البلاغي العام. رغم أن المفترض أن يكون لكل تركيب خصوصية معينة تدعو إلى هذا الاستعمال. فيكون ثمة سر جمالي يقف وراء كل ظاهرة، بالإضافة إلى هذا السر العام الذي يحلل الظاهرة بعامة. ففي مثل قوله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار..} يكون السر البلاغي الخاص لهذا الأسلوب هو المبالغة في تعظيم الأمور وبيان شدة هوله وتفخيمه(١٦٠). وعلى هذه الشاكلة يجب أن يكون لكل موضوع أسراره الخاصة.

وبالعكس من ذلك الأسلوب، يقع العدول في أن ينوب الاسم الظاهر عن ما حقه أن يأتي ضميراً كأن يكون المظهر اسم إشارة، كما في قول الشاعر:

تَعالَلْتِ كَي أشْجَى، وَما بِكَ عِلّةٌ تُرِيدِينَ قَتْلي، قَدْ ظَفِرْتِ بِذلِكا [١٦١]

فالأصل في هذا البيت – أو مقتضى الظاهر – أن يقول: "قد ظفرت به" ولكنه عدل عنه فقال: "قد ظفرت بذلك"[١٦٢]. وهذا العدول يجيء من أجل سر جمالي لا يتحقق بغير هذا العدول، وهو ادعاء أن المشار إليه – وهو القتل – قد كمل ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر[١٦٣]. أي أن سر الجمال يتحقق بالتجسيم الذي يضيفه هذا العدول إلى المعنى، إذ يصبح المعنوي (القتل) عينياً يرى ويشار إليه حتى إنه يفارق وجوده المعنوي إلى الوجود الحسي.

وقد ينوب الاسم المظهر عن الاسم المضمر ليضيف إلى قيمته الدلالية قيمة إيقاعية كما في قوله تعالى: {قُلْ أعُوذُ بربِ الناسِ. مَلك الناسِ. إلهِ الناسِ. من شرّ الوسواسِ الخنّاسِ. الذي يُوسْوسُ في صُدُورِ النّاس}[١٦٤]. حيث ترد كلمة "الناس" أكثر من مرة مراعاة للتجنيس – كما يقول الزر كشي[١٦٥]– يعني بين كلمتي "الناس – الخناس". كذلك لما يحدثه تكرار صوت السين من وسوسة تناسب جو السورة[١٦٦]. وللخروج من المضمر إلى المظهر أسرار كثيرة يوردها البلاغيون في كتبهم، وقد لا يتأتى هاهنا حصرها، إنما يكتفى بما تمت الإشارة إليه منها.

ومن صور العدول بتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر **الأسلوب الحكيم**، وهو: (تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له)[١٦٧].

ومن أمثلة الأول قول القبعثرى للحجاج لما قال له متوعداً: لأحملنك على الأدهم، فرد القبعثرى: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب. وأما الثاني فكقوله

تعالى: {يسألُونكَ عنِ الأهلةِ قُلْ هِيَ مواقِيتُ للنّاسِ والحجّ}[١٦٨].حيث كان سؤالهم عن علة كون الهلال يبدأ دقيقاً ثم يتزايد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما كان، فأجابهم بما هو الأولى لحالهم والأنفع لهم.

إن هذين النوعين يمثلان عدولاً واضحاً عن الأصل الذي يفترض أن يأتي عليه الكلام، فالمتكلم لا يجد إجابة تتناسب مع ظاهره، وإنما يعدل المجيب إلى جواب آخر يكون هو الأولى بأن يُلتفت إليه.

القصر :

في القصر يذكر القزويني أن النفي والاستثناء يستعملان مع ما (يجهله المخاطب وينكره، كقولك لصاحبك وقد رأيت شبحاً من بعيد: (ما هو إلا زيد) إذا وجدته يعتقده غير زيد ويصر على الإنكار. وعليه قوله تعالى: {وَمَا مِنْ إِلهٍ إلاّ الله}[١٦٩])[١٧٠]. وقد يتم العدول عن هذا الأصل فينزل الأمر المعلوم منزلة المجهول المنكَر –كما يرى القزويني–، كما في قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ بِمسْمِعٍ مَنْ في القُبُور. إنْ أَنْتَ إلاّ نَذِير}[١٧١]. (فإنه صلى الله عليه وسلم كان لشدة حرصه على هداية الناس يكرر دعوة الممتنعين عن الإيمان ولا يرجع عنها، فكان في معرض من ظن أنه يملك مع صفة الإنذار إيجاد الشيء فيما يمتنع قبوله إياه)[١٧٢] .

وأما أداة القصر (إنما) فتستعمل مع ما (يعلمه المخاطب ولا ينكره.. كقولك: إنما هو أخوك، وإنما هو صاحبك القديم، لمن يعلم ذلك ويُقِرّ به، تريد أن ترققه عليه وتنبهه لما يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب)[١٧٣]. وكذلك قد يعدل عن هذا الأصل، حيث (يُنزّل المجهول منزلة المعلوم لادعاء المتكلم ظهوره... نحو: {إنّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون}[١٧٤]، ادّعوا أن كونهم مصلحين ظاهر جلي، ولذلك جاء {أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ

المفْسِدُون} للرد عليهم مؤكداً بما ترى من جعل الجملة اسمية وتعريف الخبر باللام وتوسيط الفصل والتصدير بحرف التنبيه ثم بأنّ)[١٧٥].

الإنشاء :

يمكن النظر في حديث البلاغة العربية عن الإنشاء الطلبي للتأكد من كون العدول عنصراً مهماً للنظر في بلاغة الكلام، ففي التمني وهو إنشاء إرادة حدوث أمر ما[١٧٦]يقرر البلاغيون (أن الكلمة الموضوعة للتمني هي "ليت" وحدها)[١٧٧]. ولكنهم مع هذا يرون أن السياق قد يدل على إجراء التمني بغير الكلمة الموضوعة له، فقد يحدث التمني بـ"هل"، و"لعل"، و"لو".

ولكن هذه الصيغ لا تفيد نفس الفائدة التي تفيدها "ليت"، بل إن لكل واحدة منها دلالاتها الخاصة التي تفيدها هي ولا يستطيع غيرها الوفاء بها. ففي مثل قوله تعالى: {فهَلْ لَنا مِنْ شُفعاءَ فيشْفَعُوا لَنا}[١٧٨] يأتي التمني بـ"هل"؛ وذلك (لإبراز المتمنى لكمال العناية به في صورة الممكن)[١٧٩]. أي أن حاجتهم إلى شفيع قد غلبت على نفوسهم حتى صارت من فرط تعلقها بذلك تفترض غير الواقع واقعاً، لتستروح بعض استرواح بهذا الأمل الموهوم[١٨٠] عن طريق العدول باستخدامهم أسلوب الاستفهام الذي لا يقع إلا في الأمور الممكنة.

وعلى النحو من هذه الصورة يأتي التمني بـ"لو". كما في قوله تعالى: {فلَو أنّ لَنا كَرّة فنَكُونَ مِنَ المؤمِنين}[١٨١]. فإن الأصل في استعمال "لو" أن تفيد الامتناع، ولذلك حينما يعز الأمر على التمني ويستعصي عليه[١٨٢]يأتي استخدام "لو" ليفيد استبعاد المتحدِّث وقوع ما تمنّاه. وهو ما يصور في الآية شعور اللهفة اليائس الذي أدرك أن لا رجوع[١٨٣]، هي صورة اليأس الخانق الذي كتم على تلك النفوس أنفاسها، فأنشأت

تتمنى الرجوع مع يقينها باستحالته. وهي بهذا تقاسي عناء الندم المتورم الذي أقلق عليها هواجسها.

كما قد يتمنى بـ"لعل"، كما في قوله تعالى {لعَلّي أبلُغُ الأسبابَ أسبابَ السماواتِ فَأطلعَ إلى إلهِ مُوسى}[١٨٤]. فلأن الترجي ممكن الوقوع والحدوث غالبا[١٨٥] جاء استخدام فرعون لعبارة الرجاء التي تكون للأمر المتوقع؛ لأن في ذلك إيهاماً بأنه جادّ في التعرف على حقيقة ما يدعو إليه موسى ليبطل ما قد يطوف في الأوهام أن في الكون إلهاً غيره[١٨٦]. كما أن في مجيء ذلك الاستخدام إشارة منه (لبعد المرجو عن الوصول)[١٨٧] ، كما يشير لذلك تصريحه في نفس الآية باستبعاد الاطلاع بقوله: (وإني لأظنُّهُ كَاذِبَاً). فاستخدام الآية لهذا الأسلوب على لسان فرعون كشف عن دلالتين خفيتين: محاولته التمويه وإيهام قومه بصدقه في البحث. واستبعاده في قرارة نفسه وقوع المتمنى. ولم تكن تلك الدلالات لتتحقق لو استخدم السياق صيغته الأصلية.

وكذلك الشأن في فعل الأمر الذي يظهر أن صيغته موضوعة لطلب الفعل على سبيل الاستعلاء[١٨٨]- أي ممن هو دونك -. لأن هذا الغرض هو المتبادر إلى الذهن عند سماع تلك الصيغة، ولتوقف ما سواه من الأغراض على القرائن[١٨٩]. وهذه الإشارة كافية لتوضيح أن صيغة الأمر التي يتلبسها استعمال أصلي، قد تخلع عن نفسها هذا الاستعمال حسب مقتضيات الأحوال، ذلك (أن صيغة الأمر قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام)[١٩٠].

ففي قوله تعالى: {وإنْ كنتُم في ريبٍ مما نزّلنا علَى عَبدِنا فأْتُوا بسوُرةٍ من مثلِه وادعُوا شهداءَكُم مِن دُونِ اللهِ}[١٩١] يأتي الأمر: (ادعوا) لمنكري بلاغة القرآن بأن يدعوا شهداءهم ممن اتخذوهم آلهة من دون الله، وزعموا شهادتهم معهم يوم القيامة. وفي هذا الأمر لهم بأن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته

تظهر غاية التهكم بهم[١٩٢]. والتهكم إنما يأتي من تلك الإشارة الخفية إلى أن إعجاز القرآن وبلاغته قد بلغ من الوضوح والاشتهار والذيوع إلى أن صارت الجمادات الميتة كالأصنام مستظهراً أمر أعجازه، في حين أن هؤلاء الأحياء العقلاء لا زالوا يمارون في ذلك.

كما في أمرهم بأن يجأروا بالدعاء إلى أحجارهم الصماء وأن يتخذوها حكماً، محاولة لطيفة بأن تلفت أنظارهم إلى التباين الحاد بين الله القادر الذي إذا دعي أجاب وبين آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع ولا تعقل أو تسمع.

وشبيه بما سبق في العدول عن أصل الاستعمال قول الشاعر:

أَسِيئي بِنا أو أَحْسِنِي لا مَلومَةٌ　　　لَدَيْنا وَلا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[١٩٣]

فإن الأمر ليس على ظاهره، وإنما يريد به الشاعر إظهار شدة الحب، حيث إن (وجه حسنه إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الأمر كأنه مطلوب.أي مهما اخترت في حقي من الإساءة والإحسان فأنا راض به غاية الرضا، فعامليني بهما وانظري هل تتفاوت حالي معك في الحالين)[١٩٤].

إن حال الوجد التي خنقت أنفاس الشاعر جعلته يستلذ الفعل - سيئاً كان أو حسناً -، ويراه لوناً من الوصل متي أوقعه الحبيب عليه. فالشاعر الذي طمره جمود الصمت وأحزنه هجران الحبيب أراد كسر حجز الرتابة وتحطيم دوائر السكون. فأتى لذلك أمره بإنتاج الفعل واستعادة الحركة، إيجابية كانت أو سلبية. إن ذلك الأمر تجسيد صادق لعرامة الرغبة في إلقاء حجر حياة في مياه الحب الراكدة. إنه أمر الرغبة في إعادة فعل الحياة إلى الحب الذي يتهدده سكون الموت.

والاستفهام كذلك تأتي صيغه وألفاظه - كما يقرر البلاغيون - لغرض أصلي هو: طلب خبر ما ليس عندك[١٩٥]. وبناء على ذلك فكل ما وقع في كلام الله تعالى

من استفهام هو استفهام مجازي لا حقيقي، (لأن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شئ وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم)[١٩٦].

وعلى ذلك جاء البحث البلاغي ليحدد الاستعمال الأصلي لكل صيغة من صيغ الاستفهام، ثم يعرج على ذكر بعض المعاني المجازية التي تخرج عنها ألفاظ الاستفهام. فإن (هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معان غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام)[١٩٧].

وتلك المعاني التي ينبثق عنها التعبير بالاستفهام المجازي يذكر البلاغيون لها صوراً كثيرة مثل قوله تعالى: {وهَلْ أتاكَ نَبَأ الخَصْمِ إذ تَسَوّرُوا المحرَاب}[١٩٨]، فإن ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، كما أن فيه التشويق إلى استماع الخبر[١٩٩].

وأما قوله تعالى: {أرأيتَ الذي يُكذّبُ بِالدّيْن}[٢٠٠]، فإن التكذيب بالدين ليس مظنة خفاء، وأمر يبدو واضحاً للناس غير خفي. فالناس يحسبونه يكفي تصديقاً بالدين أن ينطق بالشهادتين وأن تؤدى العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج. ومن ثم يأتي الاستفهام متسائلاً عما يحسبه الناس مستغنياً عن كل بيان فيثير أقصى درجات اليقظة والانتباه، ويرهف الدهشة والترقب انتظاراً لجواب غير متوقع، وتطلعاً إلى معرفة كنه التكذيب بالدين غير الذي يعرفون[٢٠١].

إن الاستفهام حينما استطاع أن يتملص من أصلية استعماله، وأن يعدل عنه إلى استعمال جديد قد تمكن من إكساب التعبير دلالات حية تعطي المعنى أبعاده الجمالية والدلالية الفريدة.

أما **النهي** فله حرف واحد هو "لا" الجازمة الداخلة على المضارع. وهو كالأمر في الاستعلاء، ويستعمل في طلب الكف أو الترك. وقد يستعمل في غيرهما من المعاني المجازية[٢٠٢].

ومن أمثلة تلك المعاني المجازية ما يرد في قوله تعالى: {ولا تأكلُوا أموالَهُم إلى أمْوالِكُم}(٢٠٣). فإن ورود النهي إلى كافلي الأيتام بعدم أكل أموال الأيتام مع أموالهم؛ ذلك لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من حلال، وهم يطمعون فيها مع ذلك كان قبح فعلهم أبلغ، وذمهم عليه أحق(٢٠٤). إن النهي هنا عام لكل اغتصاب من أموال الناس وحقوقهم مهما كانت أو كانوا. أي أن النهي عن الفعل كله لا عن صورة فردية - هي أكل مال اليتيم -، وإنما اختير أفظع صوره وأبغضها عند النفس لتكون استجابة النفس إلى الكف عنها أطوع وأسرع(٢٠٥).

وقريب من هذه الصورة قوله تعالى: {ولا تُكرِهُوا فتياتِكُم على البِغَاءِ إنْ أردْنَ تحصُّناً}(٢٠٦) حيث بنى الكلام على أبشع ما في الصورة ووجه إليه النهي، وليس المراد النهي عن إكراه الفتيات، وإنما المراد النهي عن البغاء سواء وقع إكراهاً أو طواعية(٢٠٧).

أما في مثل قوله تعالى: {ولا تُسَئَلُ عَنْ أصحابِ الجَحيم}(٢٠٨)، فقد قرئت بالنهي (ولا تسألْ)، وهذا النهي يأتي ليرسم صورة الفظاعة والهول لما وقع فيه الكفار من العذاب(٢٠٩). وكأن لا أحد يستطيع أن يصف تلك الحال أو يستطيع سماعها فينهى لذلك عن السؤال عنها. وبهذا يترك النهي الفرصة للخيال بأن يحاول تصور ذلك الأمر الذي استعصى لشدة فظاعته على التشكيل اللغوي، وتأبى على التوصيف القولي، حتى إن الكلام ليعجز عن حمله ونقله.

أما النداء فتستعمل له الصيغتان: "أي - والهمزة"لنداء القريب، في حين أن الصيغ: "يا - أيا - هيا" ينادى بها البعيد. وقد يتحقق العدول عبر تبادل هذه الصيغ المواقع، فتأتي صيغة ما يختص بنداء القريب موضع ما يختص بنداء البعيد أو العكس، كما في قول الشاعر:

أَسُكَّانَ نُعْمانَ الأراكِ تيقَّنُوا   بِأنَّكُم في رَبْعِ قَلبِيَ سُكَّانُ (٢١٠)

فالشاعر ينادي أحبابه الذين سكنوا في البلد البعيد بأداة الهمزة التي هي للقريب، كأنه يتخيلهم قريبين منه يسمعون نداءه ويحسون به[٢١١]. وفي المقابل قد ينادى القريب بأداة نداء البعيد، كقول الفرزدق:

أولئكَ آبائي فَجِئْني بِمِثْلِهِم إذا جَمعتْنا يا جرِيرُ المجامِعُ [٢١٢]

فإن الشاعر عدل عن استعمال صيغة نداء القريب إلى نداء البعيد إشارة إلى أن هذا الذي يناديه وضيع المنزلة دنيء الرتبة بينه وبين الشاعر عوالم شاسعة، من المستحيل أن يقترب منها المهجوّ أو يصل إليها[٢١٣].

وكذلك النداء يشارك الأمر والتمني والاستفهام والنهي في أن (قد تستعمل صيغته في غير معناه)[٢١٤]. وذلك ما لحظه سيبويه قبلاً في مثل قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، حيث انسلخ عن صيغة النداء معنى النداء[٢١٥]. وضمن هذا يذكر البلاغيون أغراضاً كثيرة لاستعمال صيغة النداء في غير معناه، كالإغراء والاختصاص وغيرهما[٢١٦].

ولكن الزمخشري يتمكن من التماس وجه آخر من وجوه عدول الصيغة عن نسقها في النداء غير ما ذكره البلاغيون. وذلك عندما يلاحظ أن الأصل في النداء أن يكون لما يعقل، فيعد عدولاً عن الأصل إجراء النداء على الجمادات. كما في قوله تعالى: {ولقَدْ آتينَا داودَ منّا فضْلاً يا جبالُ أوّبي معَهُ والطيرَ}[٢١٧].

حيث يري الزمخشري أن نداء الجماد في قوله: "يا جبال" جاء لما فيه من الفخامة التي لا تخفى، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية، حيث جعلت الجبال في منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا. إشعاراً بأنه ما من حيوان ولا جماد ولا ناطق ولا صامت إلا هو منقاد لمشيئته غير ممتنع عن إرادته[٢١٨]. ولهذا يعمد القرآن إلى هذا الأسلوب وله عنه مندوحة ليبث في النفوس هيبة الربوبية، ويطبع فيها الشعور بعزتها وكبريائها[٢١٩].

هكـذا اتـضح فيمـا سـبق - في الأمـر والنهـي والـتمني والاسـتفهام والنداء - أن العدول يقع في الإنشاء فيخصب السياق ويثري دلالاته.

الإيجـاز :

يقسم البلاغيون الإيجاز قسمين: إيجاز قصر ، وإيجاز حذف. فأما إيجـاز القـصر فهو (ما ليس بحذف، كقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاة}(٢٢٠)، فإنه لا حذف فيه مع أن معناه يزيد على لفظه)(٢٢١). وهذا النوع لا عدول فيه.

وأما إيجـاز الحـذف فقـد مـرت بعـض صـوره في حـذف المـسند إليـه والمسند والمفعول، إلا أن البلاغيين يضيفون إليها في حديثهم عـن الإيجـاز صـوراً أخـرى مـن الحذف، فيدرجون تحته: حذف بعض الجملة، أو حذف الجملة كاملة، أو حـذف أكثـر من جملة(٢٢٢). وهذا هو النوع الذي يتحقق فيه العدول.

وستكون البداية مع صورة الحذف الأولى: حذف بعض الجملة. هذا النوع مـن الحذف يأتي على صور كـثيرة منهـا: حـذف المـضاف أو المـضاف إليـه أو الـصفة أو الموصوف أو المعطوف أو المعطوف عليه.. إلخ(٢٢٣).فكل هذه المحذوفات تـشغل حيـزاً - كما هو واضح - من بناء الجملة النحوي، وهو ما يجعل حذفها عدولاً عـن أصـل التركيب النحوي، إذ (الحذف خلاف الأصل)(٢٢٤) - كما ينص على ذلك الزركشي- . ومن أشهر أمثلة هذا النوع حذف المضاف في قوله تعالى: {وَاسْأَلِ القَرْيَـةَ}(٢٢٥). إذ الأصل: واسأل أهل القرية، ولكنه عدل عنه بحذف المضاف.

أما الحذف الذي يكون فيه المحذوف جملة تفتقر إلى جملة أخرى تتممهـا، فيمثـل له القزويني بقوله تعالى: {ولو تَرى إذِ المجرِمُونَ ناكِسو رُؤوسِهم عندَ رَبهم رَبنا أبصَرْنا وسَمِعنا}(٢٢٦). فإن مثل هذا الحذف - حذف جواب الشرط - يأتي للدلالة علـى أن

المحذوف شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن، فلا يتصور مطلوباً أو مكروهاً إلا ويجوز أن يكون الأمر أعظم منه[٢٢٧].

وهذا الفهم قريب من المعنى الذي يذكره حازم القرطاجني (٦٨٤ هـ) عند قوله تعالى: {حَتّى إذا جاءُوها وفُتِحَت أبوابُها}[٢٢٨]، فحذف الجواب إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى، فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه وتركت النفوس تقدر شأنه[٢٢٩].

وفي هذا التحليق التحليلي لاصطياد الدلالة الغائبة، يتم إرجاع السر الجمالي إلى انفتاح المعنى على آفاقٍ، وارتياده لذرى لا تفصح عنها البنية الظاهرية للمنطوق. أي أن المعنى يشرع بواباته على فضاء الأفق المفتوح، فلا تأسره الدلالة اللفظية المقيدة. وبهذا يستطيع العدول بالحذف أن (يستثير فكر المتلقي حول هذا المحذوف.. فيتضاعف إدراكه وإحساسه بالفكرة التي تدلّ عليها العبارة)[٢٣٠].

وذات الشيء السابق يقال عند حدوث الحذف في أكثر من جملة، فعلى الرغم من أن الإمام عبدالقاهر لم يعرِض له في حديثه عن الحذف[٢٣١]، إلا أن الإمام السكاكي تناوله وحاول تقدير بعض الجمل المحذوفة في بعض الآيات، كما في قوله تعالى: {فقُلنا اضرِبوهُ ببعضِها كَذلِكَ يحيي اللهُ الموتى}[٢٣٢]، فيقدّر السكاكي المحذوفات: (فضربوه فحيي فقلنا كذلك يحيي الله الموتى)[٢٣٣].

وكذلك يفعل الخطيب القزويني الذي ميّزَ حذف أكثر من جملة عن حذف الجملة، فأفرد لكل منهما موضعاً خاصاً بسط فيه الحديث عن أمثلة لهما وشواهد. وقد وقف في حذف أكثر من جملة عند قوله تعالى : {أنا أُنَبِّئكُم بتأويلِهِ فأرْسِلُون. يُوسُف..}[٢٣٤]. فيقدّر القزويني المحذوفات: أي فأرسلوني إليه لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه فأتاه وقال له يا يوسف[٢٣٥]. ومثله تقديره للحذف في قوله تعالى: {اذهَبْ بكتابي هذا فَأَلْقِه إليهِم ثمّ تولّ عنهُم فانظُرْ ماذا يَرْجِعُون}[٢٣٦]، إذ التقدير: ففعل

ذلك فأخذت الكتاب فقرأته، ثم سأل سائل: فماذا قالت؟ فقيل: قالت يا أيها الملأ[٢٣٧].

إن ما يفعله التقدير البلاغي في الشواهد السالفة هو محاولة إعادة الأجزاء المقطوعة ليعود للأحداث تتابعها الزمني وانتظامها المنطقي، مما يدلّ على إدراك واضح بوجود عدول عن أصل الكلام الذي يُعنَى بالتراتُب النمطي والمنطقي للأحداث، في حين أن القصّ القرآني يعدِل عن أصل الكلام عن طريق إسقاط بعض الوحدات الهامشية والتركيز على الوحدات الأهم. وهذا يؤكد إدراك البلاغيين أن ثمة أصلاً للكلام يمثّل الصورة المفترضة منطقياً للصياغة اللغوية، وأن هناك صورة فنية تشكلت عبر عدولها عن ذلك الأصل.

الإطناب :

يظهر العدول في بناء الجملة وتركيبها الأصلي في بعض صور الإطناب التي توجد في الجملة. وذلك عن طريق الزيادة التي تأتي لغرض يمكن الاستغناء عنها دون أن يختلّ البناء الأصلي للجملة. كقولهم: رأيته بعيني، وذقته بفمي. فالرؤية لا تكون إلا بالعين والذوق لا يكون إلا بالفم. إلا أن هذه الزيادة قد تضيف قيمة دلالية وفنية يحقق بها السياق صورته الجمالية. يقول الله تعالى: {ما جعَلَ اللهُ لرجُلٍ من قَلبينِ في جَوفِهِ وما جعَلَ أزواجُكُمُ الّلائي تُظاهِرونَ منهُنّ أمهاتِكم وما جَعَلَ أدعياءَكم أبناءكمَ..}[٢٣٨]، فإن في قوله: "قلبين في جوفه" زيادة ظاهرة - كما يقول ابن الأثير - (فقد عُلِم أن القلب لا يكون إلا في الجوف، والتمثيل يصحّ بقوله: "ما جعل الله لرجل من قلبين")[٢٣٩]. فما السر الذي لأجله زيد على بناء الجملة الأصلي.

يجيب ابن الأثير بأن الآية تتحدث عن تبني المملوك وظهار الزوجة، وهو جعل ظهرها محرماً كظهر الأم. وفي الظهار جمع لا يصح بين الأمومة والزوجية، وفي التبني

كذلك جمع لا يصح بين العبودية والبنوة، (والجمع بين الزوجية والأمومة وبين العبودية والبنوة في حالة واحدة كالجمع بين القلبين في الجوف. وهذا تعظيم لما قالوه وإنكار له)[٢٤٠] وفي ذكر الجوف قيمة أخرى تفيد (زيادة تصوير للمعنى المقصود؛ لأنه إذا سمعه المخاطب صوّر لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان ذلك أسرع إلى إنكاره)[٢٤١].

ومما يدخل تحت الزيادة على أصل التركيب ما يذكره البلاغيون تحت مسمى: **عطف العام على الخاص أو عكسه**. فإن العطف في الأصل يقتضي المغايرة بين المعطوفات، فكيف يعطف الشيء على ما هو منه؟. ثم إن الخاص المذكور صراحةً هو جزء يتم ذكره ضمناً في الكلّ العام، فوجوده بناء على ذلك زيادة لا يقوض إسقاطها الأركان الرئيسة للجملة ولا يجور على أصل المعنى. بيد أن البلاغيين يقولون إن هذا العطف يفيد زيادة اعتناء بالخاص والتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنس العام، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات[٢٤٢]. وكأنهم بهذا يرون أن الخاص المتميّز – الذي يتستّر العام على حضوره – أبى إلا أن يتمظهر في حضور أصلي عبر انزياحه عن النسق الذي يحتويه. وكأنه بهذا يصبح ذاتاً أخرى تحايث الآخر العام وتساويه. ليتم بهذا التأكيد على ظهور الخاص وتميزه بالحضور المستقل القائم بنفسه.

ومن أمثلته قوله تعالى: {حافِظُوا عَلى الصّلَواتِ والصّلاةِ الوُسْطَى}[٢٤٣]، فإن الصلاة الوسطى هي إحدى الصلوات الخمس. وكذلك قوله: {مَن كانَ عَدواً للهِ وملائكتِهِ ورسلِهِ وَجبريلَ ومِيكالَ}[٢٤٤]، فإن جبريل وميكال من الملائكة، ولكن (ذكَرهما بعد الملائكة مع كونهما من الجنس دليل على قصد التنويه بشرفهما)[٢٤٥].

وكذلك الشأن في عطف البيان الذي يمكن الاستغناء عنه لدلالة ما قبله عليه، كما في قوله تعالى: {فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نفخةٌ واحِدةٌ. وحُمِلَت الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكةً واحدةً}[٢٤٦]. ففي مجيء كلمتي: "دكة – نفخة" على صيغة اسم المرة دلالة لازمة

على حدوثهما مرة واحدة. ولكن في الآيتين زيد على التركيب الأصلي؛ لأن هذه الزيادة – كما يرى ابن الأثير – تأتي (لمعانٍ اقتضتها، فإن النفخ في الصور الذي تقوم به الأموات من القبور مهول عظيم دلّ على القدرة الباهرة. وكذلك حمل الأرض والجبال، فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما: نفخة واحدة، ودكة واحدة. أي أن الأمر المهول العظيم سهل يسير على الله تعالى، يفعل ويمضي بنفخة واحدة ودكة واحدة، ولا يحتاج فيه إلى طول مدة)(٢٤٧).

وكذلك تظهر الزيادة في تأكيد الضمير المتصل بآخر منفصل، كما في قوله تعالى: {قُلْنَا لا تَخَفْ إنّكَ أنتَ الأعْلى}(٢٤٨) ، فإن هذه الزيادة للضمير: "أنت" تأتي لمزيد التأكيد في تثبيت قلب موسى عليه السلام وبعث الطمأنينة إليه(٢٤٩). وكذلك الشأن في قول السحرة لموسى في قوله تعالى: {إمّا أَنْ تُلقِيَ وإمّا أن نَكُونَ نحنُ المُلْقِين}(٢٥٠) ، فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده لأنهم لم يصرحوا بذلك، (ولكنهم لما عدَلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين الذين هما: "نكون ـ نحنُ" دلّ على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله)(٢٥١).

ولعلّ من صور الإطناب التي يتحقق فيها العدول ووردت بكثرة في التراث الأدبي العربي **أسلوب التكرار**. فالتكرار –كما يرى بعض النقاد– يعدّ أحد الفوارق الرئيسة بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي(٢٥٢).

بيد أنه لا بد من التأكيد على أن التكرار الذي تحدّث عنه الكثير من البلاغيين لا يتمّ النظر إلى بلاغته وجماله إلا إذا تحقّق فيه العدول عن الأصل، إما إذا لم يتضمن التكرار عدولاً فلا يُنظَر في بلاغته. وهذا المعنى يؤكده الإمام الزركشي، حيث يقول: (إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل، أما إذا وافق الأصل فلا)(٢٥٣). ويضرب مثلاً لذلك بقوله تعالى : {إيّاك نعبُدُ وإيّاكَ نستَعِين}(٢٥٤)، فـ

(إياك) هنا تكرّرت مرتين، لكن هذا التكرار لم يخالف الأصل، (لأن هنا عاملين متغايرين، كل منهما يقتضي معمولاً، فإذا ذكر معمول كل منهما بعده جاء الكلام على أصله)(٢٥٥).

إن هذه المقولة تؤكد على أن المعيار الذي يتم فيه النظر إلى بلاغة التكرار وجماله الأسلوبي هو مدى تحقق شرط العدول عن الأصل في ذلك الأسلوب، فلابد من وجود العدول ليتم النظر إلى ذلك الأسلوب عند البحث عن وجه جماله وبلاغته. بيد أنه لا تفوت الإشارة إلى أن التكرار –حتى وإن عدل عن الأصل– قد لا يكون تكراراً بليغاً بل ربما استُقبِح ورُفِض –كما يقرر ابن رشيق– (فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه)(٢٥٦). فالضابط الذي يتم الاحتكام إليه في جمال التكرار وقبحه هو مدى قدرته على إضفاء جديدٍ إلى المعنى، فإذا لم يقدّم إضافة فنية للسياق فهو رديء مرفوض.

لهذا اتفق القدماء والمحدثون على أهمية أسلوب التكرار في التأثير على المتلقي، لذا لا عجب أن يكون التكرار –كما يقول أحدهم– وسيلة من الوسائل السحرية التي يعتمد عليها العمل السحري والشعائري لإحداث نتيجة معينة(٢٥٧). ويرى ناقد آخر أن التكرار كذلك قد يلقي ضوءاً كاشفاً على نفسية المبدع ، فالتكرار يعدّ أسلوباً كاشفاً عن انفعال النفس بمثير ما، بحيث يصبح اللفظ المكرّر هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان(٢٥٨). ويمكن في ضوء هذين الغرضين الرئيسين: (التكرار الذي يهدف إلى التأثير في المتلقي، أو التكرار الذي يعكس انفعال المتكلم) إدراج كثير من أغراض التكرار التي ذكرها البلاغيون.

ومن صور العدول التي تكون في الإطناب أسلوب **الاعتراض**، حيث يتم قطع الكلام بكلام معترض لغرض بلاغي، ويكاد يكون الزمخشري واحداً ممن عُني بالتحليل البلاغي للقيمة التي يفيدها الاعتراض. ففي مثل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ – لا نُكَلِّفُ نَفْسَاً إلا وَسْعَها – أُولئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون}[٢٥٩]. يقول الزمخشري: ("لا نكلف نفساً إلا وسعها" جملة معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد)[٢٦٠].

وكذلك كان شأن الخطيب القزويني الذي يذكر للاعتراض أغراضاً عدة. ففي مثل قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ للهِ البَنَاتِ – سُبْحانَهُ – وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُون}[٢٦١]، يذكر بأن الاعتراض في :"سبحانه" للتنزيه والتعظيم[٢٦٢]. أما في مثل قوله تعالى: {وَوَصَّيْنا الإنسَانَ بِوالدِيهِ – حَمَلَتْهُ أُمّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ في عَامِين – أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْك}[٢٦٣]. فإن هذا الاعتراض يأتي ليفيد تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر علق بهما[٢٦٤]. ففائدة هذا الاعتراض – كما يذكر الزركشي – إذكار الولد بما كابدته أمه من المشقة في حمله وفصاله، فذكر الحمل والفصال يفيد زيادة التوصية بالأم، لتحملها من المتاعب مالم يتكلفه الوالد[٢٦٥]. وعلى هذه الشاكلة يذكر الزركشي كثيراً من الأسرار التي يفيدها الاعتراض[٢٦٦].

وأما صور الإطناب الأخرى مثل: الإيغال والتتميم والتذييل والتكميل فقد لا يكون العدول ظاهراً فيها لذا لم يتم التطرق إليها هنا.

وأخيراً ، وبعد التطواف في تلك المباحث البلاغية والوقوف على رؤية البلاغيين لبلاغة العدول في التركيب البلاغي، فإني آمل أن يكون هذا العرض قد كشف عن عمق الفهم الذي انطلق منه البلاغيون في التعامل مع تركيب الجملة الأدبية للنظر في جمالها وبلاغتها. وهو ما يدفع إلى دعوة المهتمّين بدراسة البلاغة العربية إلى الدراسة العميقة للبلاغة العربية للتنقيب عن الجديد والجميل.

النتائج :

- العدول هو إجراء بلاغي نقدي يستخدم لدراسة بلاغة التركيب وشعرية اللغة، ومن ثم فهو يصلح لدراسة لغة النص الشعري أكثر من مناسبته لدراسة العمل الروائي.
- لا ينظر البلاغيون إلى العدول الذي يتم فيه القفز على ضوابط وقوانين اللغة، بل يقصرون حديثهم على ذلك العدول الذي يراعي قواعد وقوانين اللغة. وعدوا ذاك العدول الذي يخالف قواعد اللغة كلاماً قد أخل بشروط الفصاحة.
- جمال الأسلوب وبلاغته ليست مقصورة على العدول كما يحاول أن يروج بعض الكتاب المعاصرين، بل إن الصور التي يوافق فيها الكلام الأصل لا تخلو من جمال بلاغي، وهو ما أدركه البلاغيون العرب إذ درسوا بلاغة الكلام إذا وافق الأصل أو خالفه.
- الكلام عند البلاغيين العرب إذا تحقق فيه العدول فلا بد من علة استدعت مخالفته الأصل، وإذا وافق الأصل فليس شرطاً أن يكون وراء ذلك علة ما، إذ قد يتضمن غرضاً بلاغياً وقد لا يتضمن، والسياق هو الذي يحدد ذلك.

الهوامش والتعليقات

(١) انظر: مفتاح العلوم ص ٧٥.

(٢) أسرار البلاغة ص ٤.

(٣)انظر: السابق ص ٥.

(٤)انظر: اللغة بين البلاغة والأسلوبية د. مصطفى ناصف ص ٢٤٢.

(٥) الكتاب ١/ ١٤، ١٥.

(٦) دلائل الإعجاز ص ٣٧٠.

(٧) الإيضاح ص١٦.

(٨) انظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي د. صلاح فضل ص ٣٧٥.

(٩) انظر: لغة الشعر د. رجاء عيد ص ٨٧.

(١٠) لسان العرب ، مادة (ع د ل) ، ص ٢٨٤١ .

(١١) انظر: الأسلوبية والأسلوب ، د.عبدالسلام المسدي ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(١٢) مجلة فصول مجلد ١١ عدد ٤ ، دراسة بعنوان : (مقولة النوع وموقع الرواية في النظرية الأدبية الحديثة) ، محمد مشبال ، الهيئة المصرية للكتاب ، شتاء ١٩٩٣ ، ص ٢٩ .

(١٣) رؤية في العدول عن النمطية في التعبير الأدبي ، د.عبدالموجود متولي بهنسي ، ص ٥ .

(١٤) مجلة فصول مجلد ١١ عدد ٤ ، دراسة بعنوان : (مقولة النوع وموقع الرواية في النظرية الأدبية الحديثة) ، محمد مشبال ، الهيئة المصرية للكتاب ، شتاء ١٩٩٣ ، ص ٢٩ .

(١٥) السابق .

(١٦) نظرية اللغة في النقد العربي، د.عبدالحكيم راضي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٩١ .

(١٧) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، حامد صالح الربيعي ، ص ٥٨٣ .

(١٨) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٧٤، ٧٥.

(١٩) سورة طه ، ١٨ .

(٢٠) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٧٨، ٧٩.

(٢١)انظر: السابق ١/ ١٨٦.

(٢٢)انظر: السابق ١/ ١٨٩.

(٢٣)انظر: السابق ١/ ١٩٣.

(٢٤)انظر: السابق ١/ ١٩٤.

(٢٥)انظر: السابق ١/ ١٩٨.

(٢٦)انظر: السابق ١/ ١٩٨.

(٢٧)انظر: السابق ١/ ١٠٢.

(٢٨) السابق ١/ ١٠٨.

(٢٩) السابق ١/١٠٨.

(٣٠) انظر: السابق ١/ ١٠٩.

(٣١) انظر: البلاغة والأسلوبية د. محمد عبد المطلب ص ٢٠٠.

(٣٢) انظر : الإيضاح (مع البغية) ١/ ١٥ .

(٣٣) البيت للنابغة الذبياني وهو في ديوانه ، شرح: غريد الشيخ، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، لبنان، ص ٧٩.

(٣٤) الإيضاح (مع البغية) ١/ ١٨.

(٣٥) ديوان العجاج ، شرح الأصمعي، تحقيق: عزة حسن، مكتبة دار الشرق، ص ٣٦٠.

(٣٦) انظر: الإيضاح (مع البغية) ١/ ١٥.

(٣٧)الإيضاح (مع البغية) ١/ ٤٢.

(٣٨) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٤٢.

(٣٩) ديوان الفرزدق ، تقديم: مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، ٢/ ٢٣٨ .

(٤٠) انظر: بغية الإيضاح ١/ ٤٢، ٤٣.

(٤١) انظر : مفتاح العلوم ص ١٧٠، الإيضاح (مع البغية) ١/ ٤٥ ، ٤٦ .

(٤٢) سورة هود ، ٣٧.

(٤٣) سورة يوسف، ٥٣ .

(٤٤) نسبه في البيان والتبيين إلى حجل بن نضلة ، انظر: ٣/ ٣٤٠ ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط ٥ ، ١٤٠٥- ١٩٨٥.

(٤٥) سورة البقرة ، الآية ٢ .

(٤٦) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٥٤.

(٤٧) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د.محمد أبو موسى، ص ٢٤٢.

(٤٨) سورة البقرة ، ١٤ .

(٤٩) البلاغة القرآنية، د.محمد أبو موسى، ص ٢٤٢.

(٥٠) سورة آل عمران ، ٣٦ .

(٥١) انظر: من أسرار البلاغة في القرآن، د.محمد شيخون ، ص ٩١.

(٥٢) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٥٦ .

(٥٣) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٤٧-٥١.

(٥٤) سورة الأنفال، ٢.

(٥٥) سورة القصص، ٤.

(٥٦) انظر: الإيضاح (مع البغية) ١/ ٦٥.

(٥٧) سورة القارعة ، آية ٦ .

(٥٨) سورة الإسراء ، آية ٤٥.

(٥٩) انظر: الإيضاح (مع البغية) ١/ ٥٦ وما بعدها .

(٦٠) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٦٨.

(٦١) المثل السائر ٢/ ٣١٦.

(٦٢) دلائل الإعجاز ص ١٤٧.

(٦٣) هذا البيت موجود في: الكامل في اللغة والأدب للمبرد ١/ ٢٧٩.

(٦٤) نهاية الإيجاز ص ٢٤٣.

(٦٥) بلاغة الكلمة والجملة والجمل د. منير سلطان ص ٢٦١.

(٦٦) لم أعثر على قائل لهذا البيت ، والبيت مذكور في دلائل الإعجاز ص ٢٣٨ .

(٦٧) انظر: علوم البلاغة، د. أحمد المراغي ، ص ٩٠. والبلاغة العربية ، د. بكري أمين ، ١/ ١٢٨.

(٦٨) دلائل الإعجاز ص ١٥٣.

(٦٩) سورة البقرة ، ١٧ .

(٧٠) الكشاف ١/ ٧٥.

(٧١) دلائل الإعجاز ص ١٦١.

(٧٢) سورة يونس ، ٢٥ .

(٧٣) انظر: أساليب بلاغية ، د.أحمد مطلوب ، ص ١٦٧.

(٧٤) انظر: البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبدالمطلب، ص ٢٣٥.

(٧٥) ما جاء هنا في مبحث التعريف اختصرته بإيجاز وتصرف كبير عن بحث لي بعنوان: (بلاغة التعريف)،.

(٧٦) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٨٢، ٨٣. انظر: مفتاح العلوم ، ص ١٧٩ ، ١٨٠.

(٧٧) البلاغة العربية قراءة أخرى، د.محمد عبدالمطلب، ص ٢٢٩.

(٧٨) سورة السجدة ، ١٢ .

(٧٩) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٨٤ ، وانظر: مفتاح العلوم ص ١٨٠.

(٨٠) ديوان المتنبي بشرح العكبري ،دار المعرفة ، بيروت، د.ت. ٤/ ١١٩.

(٨١) انظر: دلائل الإعجاز ص ٢٠٠، ومفتاح العلوم ص ١٨١، والإيضاح (مع البغية) ١/ ٨٦.

(٨٢) انظر: مفتاح العلوم ص ١٨١، والإيضاح(مع البغية) ١/ ٨٦.

(٨٣) سورة يوسف ، ٢٣ .

(٨٤) انظر: الإيضاح(مع البغية) ١/ ٨٦ .

(٨٥) سورة طه ، ٧٨ .

(٨٦) انظر: مفتاح العلوم ص ١٨٢، والإيضاح (مع البغية) ١/ ٨٧ .

(٨٧) البيت لعبدة بن الطبيب ، وهو في المفضليات ص ١٤٧ .

(٨٨) انظر: مفتاح العلوم ص ١٨٢، والإيضاح (مع البغية) ١/ ٨٨ .

(٨٩) سورة غافر ، ٦٠ .

(٩٠) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٩٠.

(٩١) ديوان ابن الرومي، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم، الرياض، ١٤٢٠هـ، ٣/ ١٠٩.

(٩٢) ديوان الحطيئة ، دار صادر ، بيروت ، ، د.ت ، ص ٤١ .

(٩٣) هكذا زعم عبدالمتعال الصعيدي في حاشيته على الإيضاح. انظر: بغية الإيضاح ١/ ٩٠.

(٩٤) ديوان الفرزدق ٢/ ٤٢ .

(٩٥) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٩١.

(٩٦) سورة الأنبياء ، ٣٦ .

(٩٧) سورة البقرة ، ١-٢ .

(٩٨) سورة يوسف ، ١٢ .

(٩٩) الإيضاح (مع البغية) ١/ ٩٢ .

(١٠٠) دلائل الإعجاز ص ١٧٨ تحقيق: محمود شاكر ، مكتبة الخانجي القاهرة، ط٢ ، ١٤١٠هـ. وينظر: الإيضاح (مع البغية) ١/ ٢٠٥ .

(١٠١) دلائل الإعجاز ص ١٧٩ ، ١٨٠.

(١٠٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٨١ ، ١٨٢ . والإيضاح (مع البغية) ١/ ٢٠٥.

(١٠٣) ديوان الخنساء ، دار صادر، بيروت ، ص ١١٩ .

(١٠٤) سورة الإسراء ، ١ .

(١٠٥) سورة الأعراف ، ١٥٠ .

(١٠٦) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د.محمد أبو موسى، دار الفكر العربي مصر، ص ٢٥٩.

(١٠٧) سورة القصص ، ٢٠ .

(١٠٨) سورة البقرة ، ٧ .

(١٠٩) الإيضاح (مع البغية) ١/ ١٠٢.

(١١٠) بغية الإيضاح ١/ ١٠٢ وما بعدها.

(١١١)انظر: الإيضاح (مع البغية) ١/ ١٠٢.
(١١٢) انظر: اللغة الشاعرة عباس العقاد ص١٦.
(١١٣) ديوان ذي الرمة ص ٥٩ .
(١١٤) الصاحبي ص ٤١٢.
(١١٥) دلائل الإعجاز ص ١٥٩.
(١١٦) سورة الغاشية ، ٢٥ ، ٢٦ .
(١١٧) سورة الحجرات ، ٧ .
(١١٨) انظر: دلالات التراكيب ، د. محمد أبو موسى ، ص ١٧٢ .
(١١٩) سورة الجاثية ، ٢٣ .
(١٢٠) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤٧.
(١٢١) انظر: أساليب بلاغية، د.أحمد مطلوب، ص ١٧. وينظر البرهان: ٣/ ٣٠٣ ـ ٣٥٥.
(١٢٢) انظر: المثل السائر ٢/ ٢٤١.
(١٢٣) سورة طه ، ٦٧ .
(١٢٤) انظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد ، ص ٧٩.
(١٢٥) سورة الحشر ، ٢ .
(١٢٦) المثل السائر ٢/ ٢٤٤.
(١٢٧) السابق ٢/ ٢٤٤.
(١٢٨) انظر: الكشاف ٤/ ٤٩٩.
(١٢٩) انظر: الأسلوب، أحمد الشايب، ص ٨٤ .
(١٣٠) شعر الشنفرى الأزدي تحقيق : علي ناصر غالب ص ٦٨ .
(١٣١) انظر: مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف ، ص ٢٥٠.

(١٣٢) انظر: الإيضاح ص ٧٢ .

(١٣٣) انظر: المثل السائر ٢ / ١٨٢.

(١٣٤) انظر: مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

(١٣٥) انظر: الكشاف ١/ ١٤ .

(١٣٦) انظر: الإيضاح ص ٧٤ .

(١٣٧) قراءة جديدة لتراثنا النقدي (ندوة) دراسة بعنوان: "جماليات الالتفات" د.عز الدين إسماعيل، ٢/ ٩٠٥ .

(١٣٨) شرح ديوان امرئ القيس ، شرحه: حجر عاصي ص ٤١ .

(١٣٩) ينظر: مفتاح العلوم ص ٢٠٣ .

(١٤٠) سورة الفاتحة ، ٤ .

(١٤١) انظر: الكشاف ١ / ١٣ .

(١٤٢) سورة مريم ، ٨٨ ، ٨٩ .

(١٤٣) انظر: الكشاف ٢ / ٣٣٨ .

(١٤٤) سورة النمل ، ٧٨ .

(١٤٥) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٤٣١. وينظر: الإيضاح ص ٧٧.

(١٤٦) انظر: خصائص التراكيب ، د.محمد أبو موسى ، ص ٢٠٨.

(١٤٧) الخصائص ٣/ ٣٣٢.

(١٤٨) سورة الممتحنة ، ٢ .

(١٤٩) انظر: الكشاف ٤/ ٥١٣.

(١٥٠) المثل السائر ٢/ ١٩٥.

(١٥١) سورة الحج ، ٦٣ .

(١٥٢) المثل السائر ٢/ ١٩٥.

(١٥٣) سورة الحج ، ٢٥ .

(١٥٤) المثل السائر ٢/ ١٩٧.

(١٥٥) انظر: قراءة في تراثنا النقدي ، د. عز الدين إسماعيل ، ٢/ ٩٠٣ .

(١٥٦) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٦١ .

(١٥٧) سورة الصمد ، ١ .

(١٥٨) سورة الحج ، ٤٦ .

(١٥٩) انظر: الإيضاح ص ٧٠، وينظر مفتاح العلوم ص ١٩٨.

(١٦٠) انظر: علوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغي ، ص ١٤٣.

(١٦١) هذا البيت منسوب لابن الدمينة ، كما في: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٣/ ٥١٦ .

(١٦٢) انظر: أساليب بلاغية ، أحمد مطلوب ، ص ٢٥٠.

(١٦٣) انظر: المفتاح ص ١٩٧، والإيضاح ص ٧٠.

(١٦٤) سورة الناس ١ – ٦ .

(١٦٥) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٧١.

(١٦٦) انظر: التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص ٩٤.

(١٦٧) الإيضاح (مع البغية) ١/ ١٦٠.

(١٦٨) سورة البقرة ، ١٨٩.

(١٦٩) سورة آل عمران ، ٦٢.

(١٧٠) الإيضاح (مع البغية) ٢/ ١٨.

(١٧١) سورة فاطر ، ٢٢.

(١٧٢) الإيضاح (مع البغية) ٢/ ١٨.

(١٧٣) الإيضاح (مع البغية) ٢/ ٢٠.

(١٧٤) سورة البقرة ، ١١.

(١٧٥) الإيضاح(مع البغية) ٢/ ٢٠.

(١٧٦) انظر: دروس في البلاغة العربية ، الأزهر الزناد، ص ١٢٨.

(١٧٧) مفتاح العلوم ص ٣٠٧، وينظر الإيضاح ص ١٣٠.

(١٧٨) سورة الأعراف ، ٥٣ .

(١٧٩) الإيضاح ص ١٣٠.

(١٨٠) انظر: دلالات التراكيب، د.محمد موسى، ص ٢٠١.

(١٨١) سورة الشعراء ، ١١٨ .

(١٨٢) انظر: علوم البلاغة ، مصطفى المراغي، ص ٦٢.

(١٨٣) انظر: دلالات التراكيب ، د.محمد موسى، ص ٢٠٢.

(١٨٤) سورة غافر ، ٣٦ ، ٣٧ .

(١٨٥) انظر: البلاغة العربية ، د.بكري أمين، ١/ ٨٤.

(١٨٦) انظر: دلالات التراكيب ، د.محمد موسى، ص ٢٠٢.

(١٨٧) الإيضاح ص ١٣١.

(١٨٨) انظر: السابق ص ١٤١.

(١٨٩) انظر: مفتاح العلوم ص ٣١٨، والإيضاح ص ١٤١.

(١٩٠) الإيضاح ص ١٤٢.

(١٩١) سورة البقرة ، ٢٣ .

(١٩٢) انظر: الكشاف ١/ ١٠٠.

(١٩٣) ديوان جرير ص ٦٨ .

(١٩٤) الإيضاح ص ١٤٢.

(١٩٥) انظر: السابق ص ١٣١.

(١٩٦) السابق ص ١٣١.

(١٩٧) السابق ص ١٣٧، وينظر مفتاح العلوم ص٣١٣.

(١٩٨) سورة ص ، ٢١ .

(١٩٩) انظر: الكشاف ٤/ ٨٢.

(٢٠٠) سورة الماعون ، ١ .

(٢٠١) انظر: التفسير البياني للقرآن ، د. عائشة عبد الرحمن ، ٢/ ١٨٤.

(٢٠٢) انظر: مفتاح العلوم ص ٣٢٠، والإيضاح ص ١٤٣.

(٢٠٣) سورة النساء ، ٢ .

(٢٠٤) انظر: الكشاف ١/ ٤٦٩.

(٢٠٥) انظر: بلاغة الكلمة والجملة والجمل، د.منير سلطان، ص ١٢٧، والبلاغة القرآنية، د.محمد أبوموسى ص ٣١٢.

(٢٠٦) سورة النور ، ٣٣ .

(٢٠٧) انظر: دلالات التراكيب ،د.محمد أبو موسى، ص ٢٥٩.

(٢٠٨) سورة البقرة ، ١١٩ .

(٢٠٩) انظر: الكشاف ١/ ١٨٢.

(٢١٠) هذا البيت لابن باجة كما في: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٧/ ٢٤ .

(٢١١) انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، د.بكري أمين ، ١/ ١١٣.

(٢١٢) ديوان الفرزدق ص ١٣٨ .

(٢١٣) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها- علم المعاني ، د.فضل حسن عباس ص ١٦٥ .

(٢١٤) الإيضاح ص ١٤٤.

(٢١٥) انظر: الكتاب ٣/ ١٧٠.

(٢١٦) انظر: الإيضاح ص ١٤١.

(٢١٧) سورة سبأ ، ١٠ .

(٢١٨) انظر: الكشاف ٣/ ٥٧١.

(٢١٩) انظر: البلاغة القرآنية ، د.محمد أبو موسى ، ص ٣١٤.

(٢٢٠) سورة البقرة ، ١٧٩ .

(٢٢١) الإيضاح (مع البغية) ٢/ ١١٨.

(٢٢٢) انظر: السابق ١٧٧.

(٢٢٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٠٧ ، والمثل السائر ٢/ ٣١٧.

(٢٢٤) البرهان في علوم القرآن ٣/ ١٧٦.

(٢٢٥) سورة يوسف ، ٨٢ .

(٢٢٦) سورة السجدة ، ١٢ .

(٢٢٧) انظر: الإيضاح ص ١٧٩. والنكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) ، ص ١٠٦.

(٢٢٨) سورة الزمر ، ٧٣ .

(٢٢٩) انظر: منهاج البلغاء ص ٣٩١.

(٢٣٠) في البنية والدلالة ، د. سعد أبو الرضا ، ص ١٣١ .

(٢٣١) ينظر: دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

(٢٣٢) سورة البقرة ، ٧٣ .

(٢٣٣) مفتاح العلوم ص ٢٧٨ .

(٢٣٤) سورة يوسف ، ص ٤٥ .

(٢٣٥) انظر: الإيضاح ص ١٨٣ .

(٢٣٦) سورة النمل ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٣٧) انظر: الإيضاح ص ١٨٣ .

(٢٣٨) سورة الأحزاب ، ٤ .
(٢٣٩) المثل السائر ٢/ ٣٩٧.
(٢٤٠) السابق ٢/ ٣٩٧.
(٢٤١) السابق ٢/ ٣٩٧.
(٢٤٢) انظر: الإيضاح ص ١٨٨، والبرهان في علوم القرآن ٣/ ٤٣.
(٢٤٣) سورة البقرة ، ٩٨ .
(٢٤٤) سورة البقرة ، ٢٣٨ .
(٢٤٥) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٤٥.
(٢٤٦) سورة الحاقة ، ٩٨ .
(٢٤٧) المثل السائر ٢/ ٣٩٨.
(٢٤٨) سورة طه ، ٦٨ .
(٢٤٩) انظر: الكشاف ٣/ ٤٢.
(٢٥٠) سورة الأعراف ، ١١٥ .
(٢٥١) المثل السائر ٢/ ٢٠٤.
(٢٥٢) انظر: الأسلوب ، أحمد الشايب ، ص ٦٠ .
(٢٥٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٩٧ .
(٢٥٤) سورة الفاتحة ، ٥ .
(٢٥٥) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٩٧ .
(٢٥٦) العمدة ٢ / ٧٤ .
(٢٥٧) انظر: الصورة في الشعر العربي ، د.علي البطل ، ص ٢١٨ .
(٢٥٨) انظر: التكرير بين المثير والتأثير ، د.عزالدين على السيد ، ص ١٣٦ .
(٢٥٩) سورة الأعراف ، الآية ٤٢.

(٢٦٠)الكشاف ٢/ ١٠٤.

(٢٦١) سورة النحل، الآية ٥٧.

(٢٦٢) انظر: الإيضاح ص ١٩٤.

(٢٦٣)سورة لقمان، الآية ١٤.

(٢٦٤) انظر: الإيضاح ص ١٩٥.

(٢٦٥) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ١٣٦.

(٢٦٦) انظر: البرهان ٣ / ١٣٤ ــ ١٤٢.

المصـادر والمراجـع

الكتب :

١. القرآن الكريم .

٢. ابن الأثير ، – المثل السائر ، تحقيق : د.أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانه ، دار الرفاعي – الرياض، ١٤٠٣/ ١٩٨٣ .

٣. أحمد ، د.محمد خلف الله – النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق : د.محمد خلف الله أحمد ، ود.محمد زغلول سلام ، دار المعارف ط،١٩٩١م .

٤. إسماعيل ، د.عز الدين – دارسة بعنوان (جماليات الالتفات) ضمن: قراءة جديدة في تراثنا النقدي (ندوة) تمام حسان وآخرون ، النادي الأدبي– جدة ١٤١٠/١٩٩٠ .

٥. الأصفهاني ، أبو الفرج – الأغاني ، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج ، دار الثقافة، بيروت ، ١٩٦٠ م .

٦. امرؤ القيس– شرح ديوان امرئ القيس ، شرح : حجر عاصي ، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٤م.

٧. أمين ، د.بكري شيخ – البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، دار العلم للملايين– بيروت، ١٩٩٠ .

٨. البطل ، د.علي– الصورة في الشعر العربي ، دار الأندلس– بيروت، ١٩٨٣ .

٩. بهنسي ، د.عبدالموجود متولي – رؤية في العدول عن النمطية في التعبير الأدبي، طبعة دون دار نشر، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م. ط١.

١٠. الجاحظ ، أبو عثمان – البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي– القاهرة ، ١٤٠٥ – ١٩٨٥ .

١١. الجرجاني ، عبدالقاهر – أسرار البلاغة، تحقيق : محمود شاكر دار المدني – جدة ، ١٤١٢ / ١٩٩١ .

١٢. الجرجاني– دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود شاكر ، مكتبة الخانجي– القاهرة ، ١٤١٠ / ١٩٨٩ .

١٣. جرير – ديوان جرير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

١٤. ابن جني ، – الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي– بيروت ، د.ت .

١٥. الحطيئة – ديوان الحطيئة ، دار صادر ، بيروت ، ، د.ت .

١٦. الخنساء ، – ديوان الخنساء المكتبة الثقافية، بيروت ، لبنان ، د. ت.

١٧. الذبياني ، النابغة – ديوانه ، شرح: غريد الشيخ، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت.

١٨. ذو الرمة – ديوان ذي الرمة ، دار صادر ، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

١٩. الرازي، – نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا ، دار الجيل – بيروت ، ١٤١٢ / ١٩٩٢ .

٢٠. الربيعي ، د.حامد صالح - مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، منشورات جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م.

٢١. ابن رشيق، - العمدة ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل - بيروت ، د.ت .

٢٢. أبو الرضا ، د.سعد - في البنية والدلالة ، منشأة المعارف- الإسكندرية، رقم الإيداع ٥٢٠٠ / ٨٧ .

٢٣. ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم، الرياض، ١٤٢٠هـ .

٢٤. الزركشي ، بدر الدين - البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : ١ـ د.يوسف المرعشلي ٢ـ جمال الذهبي ٣ـ إبراهيم الكردي دار المعرفة - بيروت ١٤١٠ / ١٩٩٠ .

٢٥. الزمخشري ، جار الله - الكشاف ، دار الكتاب العربي- بيروت - ١٤٠٧/ ١٩٨٧ .

٢٦. الزناد ، الأزهر- دروس في البلاغة العربية ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٢ .

٢٧. السكاكي ، أبو يعقوب - مفتاح العلوم ، شرح وتعليق: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

٢٨. سلطان ، د.منير- بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، منشأة المعارف - الإسكندرية، ١٩٩٣ .

٢٩. سيبويه- الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية للكتاب ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

٣٠. سيد ، د.عز الدين علي - التكرير بين المثير والتأثير ، عالم الكتب - بيروت ١٤٠٧ / ١٩٨٦

٣١. الشايب ، أحمد - الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ١٤١١/ ١٩٩١ .

٣٢. الشنفرى - شعر الشنفرى الأزدي تحقيق : علي ناصر غالب ، مطبوعات مجلة (العرب) الرياض ط١ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٣. شيخون، د.أحمد محمد - من أسرار البلاغة في القرآن ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

٣٤. الصعيدي، عبدالمتعال - بغية الإيضاح ، مكتبة الآداب بالجمامير ، رقم الإيداع ٤٥٣٥ / ١٩٨١ .

٣٥. الضبي، المفضل - المفضليات ، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٧ .

٣٦. راضي، د.عبدالحكيم ، نظرية اللغة في النقد العربي ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠.

٣٧. عباس ، د.فضل حسن - البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني ، دار الفرقان ، إربد، ط٣ ، ١٤١٣ - ١٩٩٢ .

٣٨. عبدالباقي، محمد فؤاد - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، المكتبة الإسلامية- استانبول، ١٩٨٢ .

٣٩. عبدالرحمن ، د.عائشة - التفسير البياني للقرآن الكريم ، دار المعارف- القاهرة، رقم الإيداع ٧٢٦٦ / ١٩٩٠ .

٤٠. عبدالمطلب، د. محمد - البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية ، لونجمان ، ١٩٩٧ ، ط ١ .

٤١. عبدالمطلب ، د.محمد - البلاغة والأسلوبية ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٤

٤٢. العجاج ، ديوان العجاج ، شرح الأصمعي، تحقيق: عزة حسن، مكتبة دار الشرق.

٤٣. العقاد، عباس محمود - اللغة الشاعرة ، المكتبة العصرية- بيروت، د.ت .

٤٤. عيد ، د.رجاء- البحث الأسلوبي ، منشأة المعارف- الإسكندرية ، ١٩٩٣ .

٤٥. عيد ، د.رجاء- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف- الإسكندرية ، رقم الإيداع ٥٣٤٣ / ٨٨ .

٤٦. عيد ، د.رجاء - لغة الشعر ، منشأة المعارف- الإسكندرية - ١٩٨٥ .

٤٧. ابن فارس ، - الصاحبي ، ابن فارس ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، عيسى البابي الحلبي - القاهرة د.ت .

٤٨. الفرزدق - ديوان الفرزدق ، شرح: علي الفاعور ، المكتب العلمي ، ط ١ ١٩٨٧ م.

٤٩. فضل، د.صلاح - نظرية البنائية في النقد الأدبي ، دار مختار – القاهرة،١٩٩٢ .

٥٠. القرطاجني، حازم - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق: محمد الحبيب ابن خوجه ، دار الكتب الشرقية د.ت .

٥١. القزويني ، الخطيب - الإيضاح ، دار إحياء العلوم - بيروت ، ١٤٠٨ / ١٩٨٨ .

٥٢. قطب ، سيد – التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق - القاهرة ، ١٤٠٩ / ١٩٨٩ .

٥٣. المبرد ، أبو العباس - الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق: محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥٤. المتنبي، ديوان المتنبي بشرح العكبري ،دار المعرفة ، بيروت، د.ت..

٥٥. المراغي ، أحمد مصطفى - علوم البلاغة ، د.ت .

٥٦. المسدي ، د.عبدالسلام – الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس، ليبيا ، ط ٣ .

٥٧. مطلوب ، د.أحمد - أساليب بلاغية وكالة المطبوعات - الكويت ، ١٩٧٩ / ١٩٨٠ .

٥٨. المقّري، أحمد بن محمد – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٥٩. ابن منظور- لسان العرب، تحقيق: عبدالله الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف- القاهرة د.ت .

٦٠. أبو موسى ، د. محمد - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، دار الفكر العربي- بيروت، د.ت .

٦١. أبو موسى ، خصائص التراكيب ، مكتبة وهبة – القاهرة ، ١٤٠٨ / ١٩٨٧.

٦٢. أبو موسى ، - دلالات التراكيب ، مكتبة وهبة – القاهرة، ١٤٠٨/ ١٩٨٧ .

٦٣. ناصف ، د.مصطفى - اللغة بين البلاغة والأسلوبية ، النادي الأدبي - جدة ، ١٤٠٩ / ١٩٨٩ .

٦٤. اليوسف ، يوسف - مقالات في الشعر الجاهلي ، دار الحقائق - سوريا، ١٩٨٥ .

(ب) الدوريات :

- مشبال ، محمد ، مجلة فصول مجلد ١١ عدد ٤ ، دراسة بعنوان : (مقولة النوع وموقع الرواية في النظرية الأدبية الحديثة) ، الهيئة المصرية للكتاب ، شتاء ١٩٩٣ .